مي عبد القادر الحافظ

عينك على السفينة

عينك على السفينة

رواية

مـــي عبد القادر الحافظ

عينك على السفينة

رواية

عينك على السفينة

مي عبد القادر الحافظ

(رواية) / ٢٠٠٦

المحتويات

إهدائي

إلى روح والدي الطاهرة ..

إلى أمي

إلى اخوتي التـــسعة

إلى الأخت التي لم تلدها أمي

إلى الصديقات الرفيقات

تمهيد

والسفينة ذات المجاديف اتخذت قرار الإبحار ،مستندة إلى شرائع الطبيعة، دون اكتراث بلا قوانين القراصنة ومكامنهم المنتشرة في الخلجان والرؤوس والجزر والمضائق والممرات الإجبارية والقنوات،وحتى على حواف السفينة ذاتها!!

دائماً ثمة قصة بلا نهاية ،ونهايات نجهل قصصها أو أصحابها، والفداحة واحدة. ليس مهماً جداً أن نأبه بمن قضوا بإعصار محقّق أو زلزلة مؤجلة ، فالكفن الحريري لا يحمي ميتاً من برودة اللحد. وهذا اللون الأصفر الذي ترونه على وجوهنا الشجرية ليس خريفي الهوى،ولا صيفي الشمس،إنه إنضاج قسري خلقه التفاعل اللاهوتي المديد في الظلمة ،مثلما توأد الثمار المقطوفة عن أمهاتها قبل الأوان في التبن أو تحت التراب كي تتبرّأ من فجاجتها مرة وإلى الأبد.

ومي عبد القادر لم تشفع لها النكبة ولا النكسة ولا التضرر بـ ’النصر‘ .. ولم يسعفها اسمها الثلاثي بكل إيحاءاته العلمانية واللاهوتية وسواها،مادامت شريكة في ارتكاب حلم بنته مع أقرانها (جميلة ومحمد ونهلة وغنوة وسهى وعفاف وشيراز ..إلى آخر القافلة) خلف ستائر الخيش والخشب والطوب،ولم تُسجّل " الجريمة" ضد مجهول،فانتهى بها المطاف – ولم ينته بعدُ – في حلك السراديب والزنازين والمنفردات والمزدوجات،وأُعطي اسمها أرقاماً وألقاباً

وأنعاتاً ككل من سبقوها أو تبعوها. وتكرّ المواسم: من سعد الذابح وجمرة الهواء الباردة وجمرة التراب الحارة وبرد العجوز وآخر العواء وأول ريح السموم إلى استواء الليل والنهار،والوابل واحد !!

كل قول هنا محض نزيف : فليس ثمة معجزة كتابية يمكنها أن تنصف حقيقة المخزون المعبّأ في ثنايا الذاكرة والأحاسيس والجسد؛ ولا شئ... لا شئ يفي هذا الوجع الإنساني حقّه.

لعل مي أرادت أن تقول: رفقا بآلامكم ثمة،مع ذلك ،مواسم أخرى: سعد السعود وبدء الزراعة وأوان المطر الموسمي و" كي لا ننسى "!

عباس

شـــكر إلى

الأستاذ... حسن عودة

الصديق ... حكم

الصديق... علاء

الرفيق ... عباس

الكتابة تحريض الإنسان

على بذل قصارى جهوده

لتجاوز الوحش الكامن في الأعماق.

وليس الوصول إلى الجمال بل للخلاص

طريق إلى غريكو....

كزنتازاكي

الطفولة

لاجئ ...لاجئون... لاجئة، كانت تلك أولى الحقائق التي كبرت عليها، استقر في أعماقي أحاديث الجدات والآباء. قصة جدتي، كيف هاجرت هي وعائلتها مع الآلاف من العائلات، كيف قطعوا طرقات وعرة إلى أن وصلوا إلى قرية بنت جبيل اللبنانية حيث أقلتهم عربات شحن آحد القطارات إلى مصير مجهول وجغرافيا ضائعة، أبعدتهم عن أوطانهم وقراهم كانوا مغادرين! ... عند كل توقف مغادرين ! .

لم تعرف جدتي سبب بقائها شمالاً في آخر محطة للقطار، هل كانت تحدس بليال الشمال الحزينة! .

تكمل جدتي قصتها . تحدثني تارةً ، وتارةً تُحدث نفسها وتتساءل! عائلة الكبّة نزلت أولاً وهي عائلة زوجها ! وعائلة أبو طه نزلت قبلنا بمحطة! ... كل ما عرفته هو أن العائلات انشطرت أرباع وأخماس في كل محطة من محطات القطار، كأنهم مسبحة انفرطت وانتثرت في أصقاع بعيدة وقريبة، لم يعودوا يعرفون أخبار بعضهم إلا بعد أن جاء الصليب الأحمر وسجل أسماءهم، وكذلك من البرنامج الإذاعي الذي بدأ يبث مقابلاته مع المهاجرين، سمعوا صوت خالتي وهي تقول أنا أم وليد طه من ترشيحا قضاء عكا أهدي سلامي إلى أهلي، وسمعوا خالتي الأخرى أنا أم أحمد البكري أنا في بيروت على من يسمعني أن يبلغ أهلي ... وهكذا حصل التواصل والتعارف.

تغريبة استثنائية، وجغرافيا عائمة على امتداد الكون كانت بانتظار هذا الشعب، وما زال إلى يومنا تضيق به المدن والمنافي.

قصص الجدات كانت لعبتنا المفضلة ونحن صغار، كنا نمثلها في زواريب المخيم، نمثل لعبة عرب ويهود! نلعب ببوار يد من عصى خشبية في نهايتها مسمار ونعلق أغطية زجاجات الكازوز على أكمامنا على غرار الرتب العسكرية لتمثيل ساحة المعركة محمد أبو صلاح هو الطفل الفنان الذي كان يرسم لنا خريطة فلسطين على سواعدنا وكفوف أيدينا، كان محمد يأخذ دور الفدائي، وكنا نصطف أمامه على أننا يهود، وبكلمة واحدة منه كان يقولها لنا موتوا كنا ننبطح أرضاً ونتظاهر بالموت، ثم يأمرنا بالوقوف ويقول عيشوا، ونكرر هذا مئات المرات .

وفي إحدى المرات وبينما نحن نلعب فوجئت بوالدي وهو يرفعني عن الأرض تبسم وتمتم كلمات لم أفهمها ومضى في طريقه .

وفيما بعد انهزمت البواريد كلها، انهزمت الجيوش ثانية عام ١٩٦٧م ، واحتلت إسرائيل فائضاً من الأراضي . أجهزت على ما تبقى من فلسطين،احتلت أراضي الضفة الغربية ، والقدس عاصمة الإسلام والمسلمين، وجزيرة سيناء المصرية والجولان السورية ، وأضيف إلى سجل اللاجئين سجل آخر، سميّ بالنازحين . توزع هؤلاء في العواصم العربية ، و في دول الخليج والنفط.

تكسـرت بواريـدنا الخشـبية، حولنـا لعبتنـا إلى شـعارات معدنيـة، علقناها على ملابسنا ، كانت كليشهات اختلفت عن بعضـها بزركشـتها، رسمنا إشارة /٧/ بأصابعنا الغضة إشارة إلى النصر الذي لابد أنه آتٍ!

لم نبـق صـفاً كمـا كنـا ونحـن أطفـال، أصـبحنا صـفوفاً متغـايرين، متقابلين، اصطففنا حسب شكل الشعار وزركشته، أدرنا ظهورنا لبعضـنا، وأدرت ظهري إلى محمد الذي كـان قائـد لعبتنـا . و لم نعـد نلتقـي إلا بزفة شهيد، أو في زيارة مقبرة الشهداء في الأعياد.

ولم يمض زمن طويل حتى عـادت إسـرائيل لتشنّ معركـة الكرامـة عام ١٩٦٨ م للقضاء على تجمعات الشباب ممن كانوا يعـدون أنفسـهم فـدائيين. وقـد استشـرس المقـاتلون في تلـك المعركـة ، وسـجلوا انتصاراً، أعاد جزءاً من الروح المعنوية بعـد حالـة الإحبـاط الـتي بـدأت تسود .

في جرش معركة العرب ضد العرب ، سمينا التاريخ أيلول الأسـود، لم تكن تلـك حـرب تحريـر للأراضـي الـتي اغتصـبت ، كانـت حـرب تحرير الأردن من القوات الفلسطينية التي اختـارت الأردن منطلقـاً لهـا، وانتهت تلك الأحداث بخروج المقاومة إلى لبنان .

في مصر مشـروع روجـرز .... مشـروع التسـوية، الـذي لم يُـرفض عربياًولا إقليمياً ظهرت البرامج المرحليـة ، وجبهـة الـرفض ، والتقـت برامج اليمين واليسار في مرحلة مبكرة من النضال الفلسطيني ، أي بعـد

خمس سنوات من انطلاقة الثورة ، وأقل من ذلك الزمن على انطلاقة فصائل اليسار .

كل معركة عسكرية كانت تتلوها مشاريع تسوية، لم تكن هذه فرضية ، بل واقعاً اتسم به تاريخ النضال الفلسطيني .

ثم نشبت حرب أهلية طاحنة في لبنان خاضها فرقاء متحالفون مختلفون، لكنهم تبادلوا التناقض وتبادلوا الأدوار، وكان المخيم دائماً هو الضحية، فأبيد مخيم تل الزعتر،ومخيم الضبَيْ في بيروت عن بكرة أبيهما، لطمس شواهد النكبة، وامتد الصراع بين الفرقاء وشاركت إسرائيل بالاجتياح لخلط أوراق اللعب ، وليصبح مشروع الأمير فهد مشروع فاس أكثر مقبولية لجميع العربان ، إلا أن البند السابع منه أعفاهم من إحراجهم حين نص على " الاعتراف بإسرائيل " .

انسحبت المقاومة من بيروت، جزء منها ذهب إلى دول الجوار، وجزء آخر تبعثر في منافٍ بعيدة عن ساحة الصراع ، تونس والسودان واليمن، لتصدأ البواريد من جراء هذا البعد، ومن ثم اغتيلت شخصيات عرفت بتاريخية دورها النضالي، تم اغتيال سعد صائل وأبو جهاد الوزير قائد الانتفاضة و أبو إياد وأبو الهول ، أزيلت عقبات ليتسنى لمن بقي منهم التعامل مع مشروع التسوية والذي سميّ في البداية " إعلان المبادئ " ليكون مشروع أوسلو مسك الختام ، بعد أن سبقه كامب ديفيد المصري.

لعبة الكبار تلك لم تمزق لعبتنا ونحن صغار، كبرت لعبتي معي، شاركت مع مدرستي في حفل في المكتبة الوطنية ، بمناسبة ذكرى تقسيم فلسطين ، كنت عريفة الحفل وأنشدنا للجمهور :

فلسطين جريحة وجرحها عميق .....

يلا يلا يا عربي ننقذ فلسطين ..

صفق لنا الجمهور تصفيقاً حماسياً ، وعرفت أن الجماهير لم تنهزم، ودائماً كانت الجماهير متقدمة على البرامج السياسية.

لم يكن والدي بعيداً عن لعبنا الطفولية هو الشاب الذي رحل عن بلدته وعمره ستة عشر عاماً، كان يجيد قواعد اللغة العربية، وفنون البلاغة وإعراب القرآن، تعلمها من والده الذي كان مقرئ القرية، وإمام مسجدها. كان يعلم أطفال القرية والقرى المجاورة حتى عرف أيضاً بالحافظ، وفيما بعد صار هذا اللقب كنية العائلة.

سنوات اللجوء الأولى وضعت والدي مع حفنة من الشبان المتعلمين أمام مسؤولياتهم أتذكر من بينهم المربي أبو حسين حنينو . خططوا لتأسيس مدرسة لأطفال اللاجئين في المخيم لإدراكهم أهمية دور العلم في مواجهة النكبة واليأس . اتفقوا على تأسيس شبه مدرسة مقاعدها من الحجارة، وتقاسموا فيما بينهم مواد التدريس وكان من نصيب والدي تدريس اللغة العربية ومادة الديانة، واستمرت المدرسة التي

تبنتها وطورتـها الأونروا وعرفت فيما بعد بمدرسة عكا، ثم تم تعيينهم رسمياً مدرسين فيها.

إلى جانب ذلك تابع والدي دراسته الجامعية في بلد اللجوء سـوريا والدراسات العليا ونال شـهادة الماجسـتير باللغـة العربيـة مـن الجامعـة اللبنانية.

عرفـت والـدي مدرسـاً وناشـطاً في الأعمـال الخيريـة ، وكاتبـاً في شؤون الوطن الذي أحبه وسكن وجدانه وروحه .

قضى جلّ حياته في المخيم يقارع قسوته ويعـاني آلامـه وعـذابات العيش فيه... ضحى بسنين عمره، وأتلف أعصابه وصحته في روتـين هادئ ورصين تتطلبه مهنة التعليم التي أخلص لها أيمـا إخـلاص، لأنـه ظل على قناعة راسخة بأن العلم والمعرفة همـا الأسـاس الـذي يسـاعد شعبنا في أن يشق طريقه ويبني فوقه مستقبله ، ويمهد لثـورة مسـتمرة تنهض بها همم الشباب المسلح بالوعي والمعرفة ، وحب الوطن .

اعتقد لفترة طويلـة ، ربمـا أنـه سيعود إلى ترشيحا[1] ، وأن مثـواه الأخير لن يكون إلا هنـاك ! وتحـت وطـأة الإنكسـارات الـتي منيّ بهـا حلمنا الفلسطيني ، كان لا يكاد يصدق بأنه لن يعود إلى هناك .

فالحلم الذي سكنه طويلاً وقوى من عزيمته ، وغذى روحه بالعطاء والحب لم يغـادره أبـداً ، وكـان يوزعـه علينـا بالقسـطاط نحـن أبنـاؤه ،

---

[1] قرية فلسطينية قضاء عكا

لنحمله ونتابع السير على درب الآلام الذي هو قدرنا ! إن إخلاصي لحلم والدي ، في هذه الظروف العصيبة هو عنوان لاستمرار حياته ، فهو لم يغادرني طالما استمر حلمه فيّ ، وهو لن يغادرني أبداً فأنا منه وهو مني !

لم يكن والدي أيضا ًبعيداً عن النشاط السياسي المباشر الذي بدأ في المخيم مع فصائل الثورة،وراح يعد نفسه للعمل كباحث لتحضير معجم بلدان فلسطين . ولكنه توفي قبل طباعة ونشر هذا العمل.

هكذا كبرت وأصبحت شابة ووعيت النكبة،وجيوش الإنقاذ،ووعد بلفور،و معنى أن يصبح أهلي وأنا لاجئين، معنى أن تفقد بلدتك وأحلامك وتتجرد من أي ضمانة توفرها تلك الجنسية والمواطنة .

المخيم ... والعائلة

المخيم ... المكان المخصص لإقامة جميع اللاجئين، الأسماء متشابهة، العنوان هو الإقامة المؤقتة لأنهم جميعاً خارج الوطن

المخيم ، أشباه بيوت . بقايا ثكنات الجيش الفرنسي ، كانت تُستخدم لإيواء خيولهم ومعداتهم ومع قدوم اللاجئين عام ١٩٤٨ أجري عليها بعض التعديلات البسيطة لتليق بمكانة البلد الذي رحلّوا منه .

سماها السكان "البركسات " وكل "بركس" يتسع لست عشرة عائلة، اصطفت كل ثمان غرف على طرف واحد يقابلها نفس العدد من الغرف في الطرف المقابل، ويفصل بين الطرفين ممر " زاروب " يتسع لمرور شخص واحد. غرفة واحدة فقط كانت هي المنزل، للنوم والطبخ والحمام، أما المرحاض فقد خصص في كل حارة " بركس " يستخدم كمرحاض جماعي لجميع سكان الحارة، واحد خصص للنساء و آخر للرجال.

التعديلات التي أجريت غير مكلفة في الشكل والمضمون. فقد فصلت الغرف عن بعضها بسواتر من أكياس الخيش ، غرفة واحدة كانت نصيب ا لعائلة بكل أفرادها من الجدات والأجداد و الأحفاد . الليل هو الفاصل الوحيد بين كل عائلة وأخرى، عندما يخلدون إلى النوم والراحة أو يهربون من صور النكبة التي حلت بهم. أما النهار

فهو الزمن المشترك! أحاديث الغرف مسموعة ، والشجارات مسموعة، طبخهم مسموع والحب مسموع ، و عقاب الأطفال أيضاً ،لا أسرار لديهم إلا ما تهمس به شفاههم. حتى أن سكان "البركس" يعرفون لحظة ولادة المرأة الحامل ! فكانوا يحضرون لها الماء الساخن وبعض الحاجيات اللازمة لهذه المناسبة و يستدعون الداية أم ياسين لأنهم كانوا يعرفون التوقيت ! توقيت الحمل !

ستار " الخيش " ذاك لا يمكنه أن يمنع أي شيء ، لم يمنع جميع الأصوات على اختلافاتها ، ولا الروائح التي تتسرب من الثقوب ، ولا صوت الغسيل والحمّام .

ستة عشر عائلة في البركس الواحد لكنهم كانوا في الواقع عائلة كبيرة يشاركون بعضهم بالسراء والضراء .

شب حريق ذات مرة سببه بابور الكاز الأصفر والتهم غرف " البركس " وسواتر الخيش، مما اضطرهم إلى استبدال الخيش بألواح خشبية رقيقة لا تمنع الحرارة المستعرة صيفاً ولا البرودة المتجمدة شتاءً .

لا أدري كيف استطاع أولئك البشر تحمل كل ذلك ! هل هذا هو السبب الذي جعل الغالبية منهم يتحمسون للناصرية ولزعيمها ، هل توسموا في خطاباته وعداً بالتحرير . عُرف خالي ببطل العائلة لكثرة استدعاءاته إلى فروع الشرطة التابعة لوزارة الداخلية ، كان واحداً ممن اعتنقوا الناصرية . كان متيماً بجمال عبد الناصر .

صراع ضارٍ من أجل البقاء، كان البحث عن كل أشكال العمل وصنوفه الشغلَ الشاغل لكل شاب وأب وجدة ، البعض عمل في مهنة التدريس في مدارس الاونروا فكانوا أوفر حظاً وهو الحال الذي كانت عليه عائلتي، فقد عُيِّن الوالد معلماً . لقد تم تعيينهم بلا شهادات ، كانت شهادتهم التي تقدموا بها هي المعرفة وحسب، ولكنهم والحق يقال كانوا على درجة عالية من المسؤولية ومن الثقافة والوعي، تحملوا أعباء تدريس أجيال وتعليم أنفسهم . بعض هؤلاء المعلمين تابعوا دراستهم في مدارس المدينة ، فقد أكمل والدي المعلم دراسته وحصل على الشهادة الإعدادية و على البكالوريا في المدينة، كان يذهب إليها مشياً على الأقدام لعدم توفر وسيلة نقل من و إلى المدينة التي تبعد مسافة١٠ كم وكانت جدتي ترافقه إلى المدرسة وتنتظره ريثما ينهي امتحاناته ، إنه وحيدها والطريق من المخيم إلى المدينة يمر بين البساتين والكروم كانوا يشعرون بأنهم غرباء عن المنطقة وعن سكانها الأصليين .

عملٌ آخر كانت جدتي تقوم به ، فقد عملت بالزراعة بأجر يومي عند أصحاب البساتين القريبة من المخيم، كان هذا هو عملها في البلاد ، حين كانت إلى جانب جدي مزارعة تعمل في أراضيها التي كانت تملكها قبل قدومها إلى هنا.

كثير من نساء المخيم عملوا أيضاً مثل عمل جدتي. وكان العديد من الشباب والرجال يعملون في مجال البناء والأعمال الأخرى بأجر

يومي في الورش و في المعامل القريبة

العمل وحده كان هو المنقذ من تلك المعاناة والفقر . العمل وحده طرد إلى درجة ما شبح الفقر والعوز عن عائلات المخيم.

غاب نهار آخر وغربتهم زادت نهار ، ولا من سؤال عنهم ولا من جواب وكأن أمرهم لا يهم العرب ولا العربان ....

اعترفت هيئة الأمم بدولة إسرائيل مقابل عودة اللاجئين ... تم الاعتراف و حدثت احدى أكبر المظالم الدولية ... ويبدو أن هذه المظالم ستدوم إلى الأبد إلى الأبد .. أبد النفط الذي لم نر منه إلا السواد.

تطور المخيم و لحقته الحداثة ، وصارت الفواصل بين غرف البركسات جدراناً من الآجر بدلاً من ألواح الخشب، أما السطوح فبقيت على حالها من ألواح الخشب وفوقها لوح من التوتياء " زينكو " ثم سمح تطور المعيشة للمقتدرين ببناء منازل لعائلاتهم بالقرب من الثكنات " البركسات " ، وصار لأهلي منزل متواضع مؤلف من غرفتين ومرافق، أما ماء الشرب فكان يوضع في البراميل تنقله النساء في قدور يحملنها على رؤوسهن من المطار الذي يبعد مسافة ٣ كم .

وظهرت الممرات "الزواريب " وهي المساحة الفاصلة بين البناء المنشأ والبركسات وعُبّد الشارع لدخول الباص والسيارات ، وارتاح الطلبة والعمال من رياضة المشي القسري إلى المدينة . وأصبح شعار

اطلب العلم ولو في حلب! سهل التطبيق ولا يحتاج إلى مرافقة الأهالي لأبنائهم ،لا مشي بعد اليوم .

تحقق للطلاب سهولة الوصول إلى المدينة ودفع الأطفال ضريبة أجسادهم . كان دخول الباص إلى المخيم مُدهشاً وغريباً للأطفال ، كانوا قد اعتادوا على رؤية الطنابر والعربات التي استخدمت في نقل الأفراد والمزروعات، كان الباص جد يدهم ، جعل الأطفال من الباص لعبة وتسلية، كانوا ينتظرون مواعيده وعندما يصبح على مقربة منهم كانوا يهجمون عليه ، يتمسكون بالمؤخرة ، و تكون الضحية عندئذ ممن لا يستطيع التمسك بقوة ، أو يفلت يده فيجره الباص حتى يتآكل جسمه ، عرفت قصة ابنة عمتي كنت أستمع إلى حديث أمي مع عمتي ، كانت والدتي تقول "من يوم المرحومة"... من يومها كرهت الباصات؟

لكن الزاروب ظل هو المكان الوحيد للعب الأطفال ، ولا يزيد عرضه في الغالب عن ذراع طفل ... .

لم أنته بعد من قراءة دفاتر والدي ، التي احتوت على تاريخ كامل يوماً بيوم لوقائع النكبة، واصل والدي سرد الذكريات الأليمة، وسوّد صفحات من موضوعات شتى، لم تكن الفواصل بينها طويلة كما لاحظت أثناء قراءتي، عشر فواصل من الصفحات بعدد أبنائه ؟

تضمنت هذه الفواصل أحاديث عن أبنائه وبناته وزوجته ووالدته ، لكل واحد منا حصته من الكتابة . ساعة ويوم الولادة ، واسم

المولود وسبب التسمية والمفاجآت التي حدثت والهدايا التي قُدمت . قرأت أحد هذه الفواصل .

كتب والدي فيه : اليوم هو ذكرى الوحدة، وجه الصبح بعد ست ساعات من المخاض رُزقنا ببنت خامسة، لا شك أن الحجة " والدته " ستغضب وستسميني أبو البنات! .

أصبح عددنا عشرة ، ست أخوات وأربعة أخوة. تابعنا جميعاً دراستنا مقتدين بوالدي متأثرين بجديته ، أفهمنا أن الشهادة الجامعية هي شهادة الأمية في البيت. لقد جابه الظروف المعيشية القاسية ليؤمن لنا إمكانية متابعة تحصيلنا العلمي العالي. و تحققت أحلامه وأحلام الأسرة.

كنا نحن الأخوة العشرة نتنافس على الدراسة فيما بيننا، ما عدا أختي الوسطى التي لم يكن لديها الجِلد الكافي لمتابعة تحصيلها العلمي ، كانت تقضي معظم الوقت في اللعب كانت تحاول إشغال نفسها بأمور أخرى لتتهرب من واجباتها الدراسية ، كما أنها كانت تكره النظام الدراسي الذي طبقه والدي، إلا أن ملاحقة والدي الدائمة لها كان يعكر عليها هروبها، لا أنسى ذلك الموقف عندما كنا جميعا ملتفين حول طاولة الدراسة وكان والدي يراقب دراسة كل واحد منا ، فاقترب منها لمعرفة الكتاب الذي بين يديها وتفاجأ عندما وجد كتابها مفتوحاً بالمقلوب ! فنالت عقابها ، أمسك بيدها وجرها إلى فراشها وقال لها : أنت عدو للعلم !

النوم أفضل لك ! .

وما زلنا إلى اليوم نذكّرها بتلك الحادثة ونوجه إليها تعليقاتنا ضاحكين ، فتحاول هي إسكاتنا حتى لا يسمعها أولادها . كانت الوحيدة التي لم تتابع دراستها الجامعية ، اكتفت فقط بشهادة دار المعلمات وتخرجت معلمة، وتزوجت مباشرة ، لتلبي طموحها ورغبتها بالزواج والأمومة ، أحلام كل الفتيات والصبايا .

والواقع أنها نقيض أختي الكبيرة " البكر " التي نالت ثلاث شهادات جامعية.

جمعتنا نحن الأخوة عاطفة الأخوة والمحبة العميقة، المحبة فيما بيننا، ومحبة الآخرين التي ورثناها عن أبينا ، وكانت هذه نقطة مميزة في شخصياتنا جميعا ، إضافة إلى الهدوء والمسالمة ، لقد كانت طباعنا متشابهة إلى حد كبير.

والدتي لم تحظ بالدراسة والتعليم، تزوجت منذ صغرها قبل أن تحقق لنفسها أي شيء هاجرت من بلدها وعمرها خمس عشرة سنة ، أنجبت أختي البكر قبل اللجوء بشهر وحملتها بأقمطتها فوق دروب الآلام ، ومشاعر الخوف لا تبارحها بعد أن سمعت صراخ بعض الأمهات وعويلهن حين اكتشفن بأنهن كن يحملن مخداتٍ بدلاً من فلذات أكبادهن.

أصبحت أمي أماً قبل مراهقتها ، متوافقة ومتناغمة مع طموحات

والدي فيما يخص تربيتنا وحياتنا ، تحملت الكثير من الأعباء خلال تلك الظروف ، كانت ولاّدة ، ففي كل عام ونصف كانت تحمل مولوداً تحقيقاً لرغبة جدتي في زيادة نسل ابنها الوحيد! وبسبب مجيء البنات قبل الصبيان ! .

لقد فرضت النكبة على الجميع نوعاً من الشعور بأنهم باتوا أقلية ، وولّد الخوف لديهم تلك العقلية الغالبة بضرورة زيادة النسل، ليقاوموا الفناء، وليصبحوا شعباً كبيراً قادراً على الثأر واستعادة الأرض .

لبت أمي طموح شعبها و أنجبت عشرة أولاد ولكنها لم تعرف إن كانت قد حققت ذلك الطموح !

ولم تحدد نسلها ، إلا بعد أن وضعت أختي" البكر" مولودتها التي هي أكبر قليلاً من آخر العنقود الذي ولدته أمي ، وبعد أن ضعف جسدها وانهد بسبب كثرة الولادات .

كانت أمي وما تزال ... مدبرة أمور حياتنا ومنزلنا ، كانت الشخصية القوية الصارمة مقارنة بشخصية والدي السهلة والمتسامحة ، جميع قرارات المنزل المعلنة وغير المعلنة تصدر عنها ، فهي الجندي المجهول الذي ضحى بكل شيء من أجل أن نتقدم على دروب الحياة والعلم.

تحملت كل أعباء العمل المنزلي لتتيح لنا الوقت لإنجاز دراستنا وتفوقنا، لم تكن تتذمر من مشاركة جدتي لها في الأمور

الداخلية للأسرة، حيث كانت الجدات يتبوأن هرم السلطة . ووقفت إلى جانب والدي حينما انصرف إلى الدراسة والتحصيل قبل أن نبدأ نحن دربنا . وصبرت صبر الأنبياء ، عندما تولت أمور تربيتنا ، والإشراف على متابعة دروسنا عندما سافر والدي إلى العاصمة لإتمام دراسة الأدب العربي . ومن ثم التقدم إلى شهادة الماجستير في بيروت.

عنى لي المخيم كثيراً .. ملامح شخصيتي جبلت من عمق آلام المخيم ومن معاناة أهله، ومن الطموح الذي كان والدي يحمله دون أن نعرف له نهاية .

استمددت ذلك الاندفاع الذي لا يعرف الخوف ولا التراجع من معلمتي هالة غزاوي ، عندما أشرفت على نشاطنا الذي أقمناه في المدرسة في ذكرى وعد بلفور، لم أنس اقتراحها الأخير قبل أن ننهي عملنا فقد أحضرت شباك كرة الطائرة وثبتته فوق الصور المعروضة ، وحين سألتها عن القصد من ذلك ؟ قالت لي ولم أنس كلمتها حتى اليوم هذه هي الرقابة .. وسوف تصبح سلطة غاشمة تكم أفواهنا...

ومن يدري !! .

ترك والدي العمل في مدارس الاونروا وانتقل إلى العمل في المدارس الحكومية ، وتم تعيينه في منطقة بعيدة ، فتغيرت إقامة العائلة ، اشترى منزلاً في المدينة ، سكنته جدتي مع أخواتي، اللواتي أصبحن طالبات في كلية الأدب العربي، أما أختي الكبرى فقد

اختـارت العاصـمة لتتـابع دراسـتها في كليـة الآداب قسـم " اللغـة الإنكليزية "

ولحقت والدتي وباقي أفراد الأسرة بوالدي إلى مكان عمله الجديد تعين والدي مديراً لمدرسة إعداديـة ، وهـي مدرسـة مخصصـة للبـنين والبنـات ولكـي يشـجع والـدي الأهـالي علـى إرسـال بنـاتهم إلى الإعدادية، نقلني من مدرسـة المخـيم، فأصـبحت تلميـذة في مدرسـته، وتابعت دراسة الصف السابع ، كنت البنت الوحيدة بين التلاميذ الـذكور، لم يتشـجع الأهـالي المتعصـبون علـى إرسـال بنـاتهم إلى المدرسـة، وحرموهن من التعليم ! .

أما أنا فقد فـزت بـالكثير، كنـت التلميـذة الوحيـدة في المدرسـة والباقي ذكور، كنت ابنة المدير، التلميـذة المدللـة للمدرسـين والطـلاب معاً . صغر سني وتربيتي لم يسـمح لـي بـأن أتصـرف كمراهقـة ، رغم الرسائل التي كان يدسها طلاب الصف في مقعدي.

كانت المدرسة مبنية فوق هضبة بعيدة قليلاً عن بيتنـا، و كـان ذلـك يتيح لي قراءة الرسائل التي يدسها الصبيان في مقعدي أثنـاء الفرصـة ، بعض الرسائل كنت أقرأهـا مباشـرة و خاصـة ذات الخـط الواضـح ، وكنت أمزق الرسائل التي لا أفهم خطوطهـا و الـتي كانـت أخطاؤهـا الإملائية تتجاوز سـطورها ، بسـبب ضـعف أصـحابها في مـادة اللغـة العربية كانت غالبية التلاميذ من الأكراد، و كنت صديقة لكـل طـلاب الصف وخاصـة في درس الرياضـة ، كنـت حارسـة المرمـى في فريـق

الكرة ، وعندما يزداد حماس الطلاب أحياناً وبنحو مقصود، لا يعود هناك فريقان كانوا جميعاً يقذفون الكرة على شِباكي ، ولم يكن أمامي إلا الهروب إلى الصف، والانسحاب من اللعبة، لأتركهم بلا حارس مرمى!

في مدارس البنات لاوجود لمثل تلك اللعبة ، أخبرت صديقتي ناديا عنها كنت أكتب لها ، كلما سافر والدي في مهمته الشهرية إلى المدينة حيث كان يراجع فيها مديرية التربية، ويطمئن عن أخواتي اللواتي يتابعن دراستهن هناك . كانت هي من بين أعز صديقاتي في مدرسة المخيم، كنا نكتب الوظائف و ندرس معاً ، ونلعب معاً، كانت ألعابي مع البنات مختلفة عن ألعابي مع الصبيّة، كنت ألعب مع نزهة وأمال وناديا ، نتراهن مع بعضنا من سيفوز بسباق الجري، من أول بيت بالمخيم إلى أن نصل إلى الجامع الذي كان آخر بناء في المخيم. وفي أوقات العصر كنا نلاعب ظلّنا، نسبقه أحياناً وأحياناً نغافل بعضنا ، ندوس على ظِل بعضنا ، فنختلف مع بعضنا عندما نقول لبعضنا " دست عليك"! ، ولكن اللعبة المشوقة كانت عندما كنا نقلد التلفون، كنا نربط الخيطان ثم نصلها بعلب معدنية صغيرة من أحد طرفيها نثبت الخيط ومن الطرف الآخر نضعها على آذاننا لنستمع إلى مكالمات بعضنا، لم تكن كلماتنا مفهومة كانت مثل الخربشات، ولكن اعتقادنا أنها هاتف !

كان والد ناديا يعمل في مدرستنا الابتدائية آذناً ، كان يبيعنا البسكويت والعلكة .. كانت تدخلني معها إلى غرفة والدها تقاسمني قطع البسكويت الذي تحصل عليه ، مقابل أن أطعمها من سند ويشتي، لأنها لفت من خبز المدينة ، وهذا النوع من الخبز لم يكن متوفراً في المخيم.

في الصف الأول الابتدائي كانت تجلس معي في المقعد ، وأثناء الفرصة كانت تحضر بعض الأطعمة التي كان والدها يبيعها ! ، فكنت أقول لها لو أن والدي آذن مثل والدك لكنت أخذت ما أريد من البسكويت ! ، وترد هي عليّ قائلةً: لو أن والدي معلم مثل والدك، لكنت الأولى على الصف مثلك .

وقد ردت على رسالتي، وكررت لي أمنيتها التي كانت تتمناها ! منذ كنا في الصف الأول لو أن والدي معلم مثل والدك ، لكنت لعبت كرة القدم مثلك، وكنت قد حوّلت جميع دروسي إلى درس رياضة ، ألعب كرة القدم مع الصبيان كم أحسدك ! لأنك تلعبين مع الصبيان، وتتفرجين عليهم وهم يدحرجون الكرة نحوك. وكررت في سطر آخر لو أن والدي مثل والدك... فوالدي يهددني ويقول لي هذه السنة هي آخر سنة لك بالمدرسة ، في السنة القادمة ستخرجين وتبقين مع والدتك لتساعديها بأعمال المنزل.

بقيت سنة ونصف في تلك المدرسة القروية ثم اضطر والدي إلى إعادتي إلى المخيم لأتابع دراستي الإعدادية. لم يحقق والدي الهدف

الذي نقلني بسببه !، فالتقاليد البالية لأهالي المنطقة كانت تسحق الكثير من الحقوق ! فكيف إذا كانت تلك الحقوق تخص المرأة.

أكملت السنة الدراسية في المخيم وانتقلت إلى المدينة ، لأكون مع اخوتي وجدتي.

كانت المدينة وثانوية عدنان المالكي محطتي الثالثة، ثانوية أولاد الأغنياء من المسيحيين والمسلمين ، كل شيء مميز هنا، الدراسة والدروس الخاصة ، والمدرسات الأنيقات وطالبات الموضة ، وحتى بدلات الفتوة التي كانت اللباس الرسمي في مدارس الثانويات كانت مميزة ، والرحلات الترفيهية، وحفلات أعياد الميلاد، وحفلات البارتي المختلطة من الشباب والبنات، دعيت ذات مرة لحضور حفل مع صديقتي نوران، القريبة جداً مني أقامتها صديقتنا ريتا . و للمرة الأولى شاهدت رقص الديسكو.

الحياة جديرة أن تعاش ، ولكن أي حياة ؟ يا حياة .... ؟؟؟

كانت الحياة بالنسبة لي هي المرحلة الجامعية بالتأكيد. الجامعة هي حبيبتي المدرجات، والقاعات، والمختبرات، والواشون والمخُبرون، والحرية، والمقصف ، والمقصف المركزي، و الحوارات الساخنة ، طاولة ج ش يتوسطها أبو مراد ! طاولة فتح يتوسطها مروان ! صراعات فكرية، وخلافات حادة بين الطاولتين، هذا عواد رفيق في ج د يوزع علينا الكتب الحمراء ، ليؤكد أن موقفهم

النظري والسياسي متطابق مع الماركسية اللينينية ! فيعلق عليه البعض وينادونه أبو لينين !

اخترت قناعاتي في الجامعة وكان التزامي السياسي الأول فيها، واخترت صداقاتي ورفاقي من كل الألوان والبلدان.

صديقتي منى البحرانية الناشطة في الجبهة الشعبية البحرينية، دعتني لحضور ندوة عن تحرر المرأة، أقيمت الندوة في مقر اتحاد الطلبة البحرانيين، دهشت طبعاً من إلقائها وفصاحتها الكلامية، تذكرت معلمتي للغة العربية هالة، وقلت: يا الله إنها تشبهها بطريقة الحديث والشكل ! هل تشابه الأفكار بين البشر يؤدي إلى تشابه الأوصاف؟ لم أكن أعرف بعد علاقة الشكل والمضمون والتناغم بينهما ، وانعكاس كل منهما على الآخر.

لم أنس منى وطريقتها في الحوار وتفنيدها للآراء، صورتها حفرت في ذاكرتي، حدثت صديقي عمر اللوائي عنها، كان زميلي في الكلية وكان منتمياً لحزب يساري ! يبدو أنه فهم شيئاً من قصدي ، فأهداني كتاباً عنوانه "الاقتصاد السياسي" قرأته ! وأخبرت مسؤولي التنظيمي عن الكتاب، فتفاجأت من جوابه: نحن حركة تحرر وطني وهذه الكتب تخص الأحزاب الماركسية .

لم أقتنع بهذا الجواب، لكني تابعت التزامي بهذا الفصيل السياسي، كنت شديدة التعصب لخصوصية قضيتي، كنت مقتنعة بأن

تحرير فلسطين سينجز في المدى المنظور! كما تنبأ بذلك كتاب قرأته "نحن وأمريكا" أربع سنوات فقط ويتحقق التحرير !! .

وزادتني حماساً الكتب التي قرأتها عن التجربة الفيتنامية ، تعلمت منها دروساً غنية في تنظيم الجماهير ، وحشد طاقات المجتمع للمواجهة ، عشقت الدور النضالي الذي لعبته المرأة الفيتنامية ، فحاولت تقليد زيها ، اعتمدت اللباس الخاكي " الفلدة " والشعر ذا الجديلة . وأضاف ذلك جدية على جدّيتي في الطباع والسلوك الذين عرفت بهما .

كانت قراءتي المتنوعة للكتب ، وحركتي غير المحدودة في الجامعة، تزيد معرفتي بالنشطاء السياسيين .

يا جامعة يا حبيبتي ، جمعتنا معاً، اليمين واليسار ! والطالبين للعلا وغير الطالبين! حضنتنا جميعاً، كنت للجميع فلا تغتالوها

لشد ما يحزنني أنني سأتركك يا جامعتي، فقد شارفت على التخرج سأعود إلى الأجواء التقليدية الكريهة.

الدكتور جر جس كان أستاذي وكان متعاطفاً مع القضية الفلسطينية، كنت أزوره في مخبره لنتحدث عن الأوضاع السياسية في المنطقة، وعن أيلول الأسود، وعن الاجتياح الإسرائيلي لبيروت، وكنت أساعده في تحضير التجارب التي يعدها للطلاب، وأجهز له

القوارير، والبياشر، والأقماع بالحجوم المناسبة للتجربة، كانت زياراتي له للعلم والعمل والحوار .

لم أنس فضله عليّ ما حييت فهو الذي رشحني في مجلس الكلية للقبول بالدراسات العليا و أتاح لي فرصة ، لم يكن من السهل تحقيقها ، وخاصة في ظل قوانين متعسفة تهدد وجودك وطموحاتك و لا تسمح لي ولا لأمثالي بتحقيق ما يصبون إليه .

دعمه لي يمكن أن أسميه المستحيل، وبسبب هذا الدعم تحقق لي ما أريد.

أصبحت طالبة دراسات عليا ، وأخذت أعلى نصاب من الحصص في التدريس ، وهذا ما شغل أوقاتي، جلت بكل الكليات العلمية ، لإكمال نصابي بالتدريس ، وكانت معظم الساعات من نصيب كلية طب الأسنان . وفي إحدى جلسات الدروس العملية كنت أقرأ أسماء طلاب مجموعتي فسمعت إحدى الطالبات تقول لزميلاتها سجلوا أسماءكم عند هذه المعيدة ، لأنها يسارية، وتعرفت فيما بعد على تلك الطالبة تالا، وأصبحت فيما بعد من رفيقاتي الحميمات .

رحلة جامعية

أعلن الفصيل الذي كنت أنتمي إليه، عن رحلة إلى الساحل، كان هذا يعد جزءاً من النشاط السنوي ، تقليدٌ متبعٌ هدفه الترفيه والتعارف وتوعية الشبان .

في الصباح الباكر تجمعت حشود الطلبة، أمام مقر اتحاد الطلبة بالمدينة، وجوهٌ متقدة مفعمة بالحيوية والحماس. كان هناك باصان كبيران للانطلاق، أناشيد من قاع الحناجر تنشد وتغني وتملأ فضاء المدينة النائمة.

داخل الباص التفت مجموعة من المشاركين حول السائق، وأخذت تنشد..

"يا جماهير الأرض المحتلة ... وكان هناك مجموعة في المؤخرة تغني أغاني الشيخ إمام " يا فلسطينية ونا بدي أسافر معاكم" ، وتشكلت مجموعة في وسط الباص استغلت خفوت صوت المنشدين وعلا صوت يهدي أغنية.. وحدن..! إلى أحلى أبو صطيف ! مما أثار انتباه الكثيرين. وتساءلت من هو أبو اصطيف ؟ . من... هو ؟. ولم يكن يخطر لي على الإطلاق أنني سألتقي مع هذا الصديق في إحدى فروع التحقيق.

انتهى الفصل الأول من العام الدراسي وصارت امتحانات الجامعة على الأبواب، لم يكن قد تحدد موعد لامتحاناتي في الفرع الذي أحببته، وأحببت علماءه جابر بن حيان و لافوا زييه .

كنت كعادتي أثناء الدراسة ، أقوم بزيارات قصيرة لبعض أصدقائي الطلبة من أجل استراحة قصيرة ، للاطمئنان على دراستهم .

كان بالقرب من بيتنا منزل تسكنه طالبتان في كلية الطب البشري إحداهن من مخيم حمص اسمها بداية والأخرى من مدينة حمص اسمها شيراز وكانت هذه الأخيرة مرتبطة بعلاقة حب مع شاب من كلية الطب ، وكانت تسميها مشروع علاقة .

كانت علاقتي معهما علاقة حميمة ، كانت قناعاتنا واهتماماتنا متقاربة، كنا نتبادل الكتب والروايات، وحتى نتبادل فيما بيننا الملابس، و ساعدت علاقة الجيرة على توطيد علاقتنا أيضاً .

الصديقة بداية من مخيم حمص ، كنت ألتقي بها حين أزور مخيم حمص، لحضور بعض النشاطات التي تجرى في المخيم، كسنوية انطلاقة الثورة الفلسطينية، أو لدى إقامة معرض عن أعمال الفنان المناضل ناجي العلي، و كانت هذه المناسبات تختم بحفل فني يقيمه أبو عرب.

تعرفت على والديها التي كانت تربطهما علاقة قربى مع الأهل، كان الأهالي يتواصلون مع بعضهم قبل اللجوء، و تعرفت هي

أيضاً على عائلتي، كانت والدتي تدعوها لتتناول بعض الوجبات معنا.

كان تعارفنا أنا وشيراز من خلال الصديقة بداية ، إلا أن العلاقة تطورت بيننا خلال زمن قصير ، وفيما بعد أخذت شكلاً آخر، فيه قدر من الاستقلالية عن صديقتنا الأولى وتطورت صداقتنا في اتجاهات متعددة. وجدت فيها الفتاة المفعمة بالنشاط و الحيوية الصبية المحبة للإطلاع والتعرف إلى أي جديد تميزت علاقتي بها بحميمية خالصة، كنا نقوم معاً بزيارات للأصدقاء وببعض المشاوير المتنوعة التي لم ترغب بداية مُرافقتنا فيها ، استمرت علاقتنا بوهجها ومشاعرها إلى أن رحلت وسافرت إلى بلاد الغرب على طريقة أهلها، الذين سئموا أسئلة فروع الأمن ، بعد خروجها من اعتقالها، وقد اعتقلت مرتين متتاليتين ! وهم العائلة الأرستقراطية المعتدة بتقاليدها والتي لا يسمح كبرياؤها أن يسأل عن ابنتهم أولئك الرجال ! .

قمت بزيارتهما ذات مساء فدعتاني إلى تناول العشاء معهن. كانت عادتهن أن من ينتهي من العشاء أولاً فعليه تحضير الشاي، أما الأخيرة فتجمع الصحون وتجليها ، وكان إعداد الشاي من نصيبي .

حين قمت لأحضر الشاي، قرع باب المنزل، فلم أكترث بذلك توقعت أن الطارق عابر ما. كانت صديقتاي جالستين في الصالون وكنت أنا في المطبخ أنتظر غليان الماء، وساد سكون مريب، وطال

قليلاً ثم دخلت الصالون، فوجدت الباب مشرعاً دون أن أرى أحداً في الصالون، أو في الغرفة الثانية، وناديت شيراز.... بداية تخّيلت أنهن يمزحن معي ! ناديت ثانية !، ثم عدت أنادي عليهن من صحن الدرج فسمعت خطواً ثقيلاً يصعد راكضاً ، وتفاجأت برجل فظ متوحش ينهال بصفعات على وجهي، لم يكن يعرف اسمي، ولا أي شيء عني، حدث ذلك ! وكأنه عملية خطف ! شدني بكل قواه دون أن يترك لي فرصة لأرتدي حذائي، ولارتباكي الشديد حملت بوطاً بيدي دون أن أعرف أنه لإحدى صديقتي إلا عندما وصلت إليهما، انهمرت المسبات فوق رؤوسنا، فبلعنا أصواتنا ، وأنفاسنا ، ولم يدر هؤلاء الأفظاظ بغلطة البوط . كانت فائدة هذا البوط عظيمة لي فيما بعد، لأنه كان على قياس قدمي، عندما تورمت قدماي فيما بعد من ضربات الجلادين.

قادتنا سيارة (رانج) من أمام باب البناية ، التي تسكنها صديقتاي، كان خمسة عناصر من الدورية، يلتفون حولنا، لم يكن بمقدورنا أن نصدر أي صوت، أو إشارة لنفهم ما يحدث، كانت لغة الحواجب وحدها هي المتداولة بيننا.

كان صمتنا الصاخب رداً على شتائمهم، كانت تلك الشتائم تنهال علينا بألفاظها السوقية التي لم نعهد سماعها إلا من الصبيان في الشوارع والأزقة ، والذين نسميهم أولاد شوارع.

بعد دقائق توقفت السيارة أمام مدخل بناية أخرى وهرول عناصر الدورية إلى الداخل وعادوا بصيد جديد مؤلف من صبيتين، ثم توقفوا في محطة ثالثة، ولم تمض دقائق حتى عادوا بصبية أخرى ، لم يكن لها مكان في السيارة. تكدسنا فوق بعضنا ، كان منظرنا غريباً وعجيباً! ترجلت الأخيرة ورافقها عنصران من المداهمين ، وسارت السيارة أمامهم، و على وقع خطاهم ، و سمعنا كلامها وهي تعلق على الموقف! شو يبدو المكان المقصود قريب من هنا.؟

كان المارة ينظرون إلى السيارة، ويطرقون رؤوسهم ، ويتفقدون أنفسهم، لقد انهزم الشارع بأسره، حتى الفضول كان مهزوماً ، الهزيمة تدريب وجرعات. كان الفضول منصباً علينا فقط.

وصلنا المكان المتوقع "فرع الأمن" أدخلونا إلى غرفة يبدو أنها غرفة تدريب لرياضة كمال الأجسام، شاهدنا الأثقال وأكياس الرمل، معلقة وسط الغرفة مع حبال وأشياء لم نعرف استخدامها وأسماءها ، كان هذا لغزاً مجهولاً، ما يزال يحيط بنا و ازداد عدد الرجال الأفظاظ حولنا، وانضم إليهم شخص جديد وضع على كتفه بشكيراً لم نعره أية أهمية، ولكننا عرفنا من خبطات التحايا التي أداها بقية الرجال بأنه شخص مهم، التف حوله العناصر، وكلهم اصغاء وانتباه، نظر في ساعته، وقال: الساعة ١٢ بدي كل شي جاهز؟

ثم خرج وبدؤوا باستدعائنا كل واحدة على حدة ، أنزلونا إلى القبو، كان الوقت ليلاً، لسعتنا السياط في كل مكان من أجسادنا

وسئلنا عن أسماء أمهاتنا و عن أسمائنا الدهاليز هنا لا تعرف النوم!.

في البداية لم نعرف ما هو المطلوب! كنت منتمية إلى فصيل سياسي فلسطيني استقويت به فقضيتي هي القضية المركزية لكل العرب، فلماذا أعاقب على هذه التهمة .

كان هناك اتفاق بين الفصائل الفلسطينية والسلطة بعدم التدخل بالشؤون الداخلية للدولة، يبدو أنني لم أفهم معناه جيداً. نفيت أمامهم علاقتي بأحزاب المعارضة وأفرادها ، وأكدت لهم بأنه ليس ليّ أي علاقة بغير فلسطين ! أشباح لا تصدق إلا نفسها والأوامر التي تلقى إليها.

كنت أستجوب وأنا ممددة أرضاً على ما يسمى ببساط الريح،أسافر مع الريح بلا أجنحة ، حاملة جروحي والآلام التي أصابت قدمّي إلى سفوح بلدتي ترشيحا التي حدثني عنها والدي تلك القرية التي عانت ما عانت من همجية الجيش الإسرائيلي حينما دخلوا القرية لم تسلم الأمهات والأطفال من التنكيل والقتل. قابلوني بالصديق الضيف أبو صطيف سئلنا عن كلمات التحية التي دارت بيننا، وعن كأس الشاي التي شربناها في مقصف الجامعة، كل ذلك له حساب عندهم وله ثمن.

كان إلى جانبه شاب آخر لم يكن أحسن حالاً ! آثار التعذيب الظاهر، لم تُخجِل هؤلاء الرجال، كانت قمصانهما وبناطيلهما ممزقة؟ حتى يخال إليك بأن ذئباً افترسهم !!

كنـت أنظـر إليهمـا وهمـا في زاويـة الغرفـة ، غرفـة الأسـلاك والمولدات والبطاريات ، الغرفة السوداء التي كانـت معتمـة بسبب سماكة البطانيات التي تغطي النوافذ، يبدو أن حفلة تعذيب أخرى كانت بانتظار الصديق الضيف أبو صطيف وجاره .

دقت الساعة الثانية عشر أخيراً ! لقد انتهت أجسادنا، وتحققت رغبة ضابط التحقيق،لم يعد باستطاعتنا القيام بأي حركة، الأنين والنحيب من كل حدب و صوب، تجمعنا في زاوية الغرفة، كنا كالحطام ولم نعد نقوى على إصدار صوت سوى الإشارة التي كنت أشير بها إلى الصديقة نهاد كي تحملني إلى دورات المياه عند الحاجة كانت هذه الصديقة أوفر حظاً مني، فبسبب ضخامة جسمها لم يستطيعوا إدخالها بالدولاب، ولذا فقد جلدت على أطرافها. لم نكن نقوى على الوقوف والمشي بسبب تهتك أصابع أقدامنا، فاضطروا إلى إحضار طبيب الفرع ليداوي الجراح، فوضع الجبس على أصابع قدمي، وكذلك كان وضع صديقتي شيراز.

صار عددنا عشر معتقلات، تركونا أسبوعا داخل الفرع ريثما تخف جراحنا وتزول الكدمات عن أجسادنا .

ثم نقلونا إلى السجن المركزي ونحن نحمل أحذيتنا بأيدينا، لأنها لم تعد صالحة لأرجلنا. ذلك السجن الذي بنيّ بالمرحلة الناصرية ثم حدثته المرحلة البعثية فوسعت من ردهاته وأقفاصه.

السجن المركزي

هذا المكان "السجن" لا يبعد كثيراً عن المخيم الصخري ، حيث تسكن خالتي، يقع شمال شرق المدينة، في الجهة المقابلة لموقع المخيم الذي يسكنه أهلي، كانت أمي تصحبنا ونحن أطفال لزيارة أختها ، وهو المشوار الذي كانت أمي تعشمنا به، ننتظره بكل شغف ، كنا ننفذ كل أوامرها التي تطلبها منّا، لا عصيان لأي أمر، مشوار بعيد، بل رحلة جميلة حيث سنركب الباص ! كانت متعتنا لا توصف، كانت تغشى قلوبنا مشاعر الفرح والسعادة ، كنا نلتف خمستنا، أخواتي حول كرسي أمي ننشد بأعلى صوتنا ونقرأ سوراً من القرآن التي كنا نحفظها، و نردد أغاني غير مفهومة الكلمات، كان يضيق ذرع أمي من شغبنا وأصواتنا ، كانت أعمارنا بعمر الولدنة تُعنفنا أمي ! تقرصنا من أيدينا، وتلوي أصابعنا، علنا نخفض أصواتنا، نتهرب منها إلى كرسي آخر يبعد عنها قليلاً، فلا تستطع اللحاق بنا لأنها كانت تحمل أخي الرضيع كانت تتوعدنا، بعدم اصطحابنا معها بالمرة الثانية، ونسرع فنبلع أصواتنا، ولكن شهقات الضحك لا تفارق أفواهنا.

أحببت خالتي كثيراً كانت تشبه والدتي بحبها وحنانها، كانت تحضننا وتشدنا إلى صدرها، كنا نجهد للإفلات من قبلاتها، سنخرج إلى اللعب مع الأولاد الذين ينتظروننا أمام الدار، وتسرع بنصيحتها

قائلةً لنا لا تذهبوا بعيداً، لقد أمسكنا حيّة قبل يومين وقتلها الشباب، كنا نهز رؤوسنا ونمضي.

التعارف بين الأطفال يتم سريعاً بلا مقدمات ، كان الأولاد ينظرون إلينا وكلهم أمل أن يحظوا بمشوار مثلنا.

كنا نسمي هذا المخيم. بالمخيم التلي، وبعض الأطفال يسمونه المخيم الصخري ، كان يمتد فوق تلال من الصخور ، لا سهول هنا كما في مخيمنا، كنا نتسلق الصخور ونلحق بالزواحف ، مشينا كثيراً حتى أطّل علينا بناء من بعيد، سألت عنه !.

فقال أحد من الأطفال، نحن لم نذهب إليه أبداً ، ولكنني سمعت من أبي بأنه " حبس" رددنا هذه الكلمة، ونحن صغار دون أن نعرف معناها ولا محتواها، وها قد عرفتها الآن بعد دخولي إليه.

كان السجن من الداخل عبارة عن ممر ضيق، مهاجع مصطفة بجانب بعضها على هيئة سلسلة، كان مهجعنا هو الأخير وكانت المهاجع الأخرى تضم معتقلين من حزب الإخوان المسلمين، ومعتقلين من الحزب الشيوعي السوري " المكتب السياسي"، وناصريين اشتراكيين.

استقبلتنا إدارة فرع السجن بالشتيمة والكلام البذيء. واستقبلنا المعتقلون داخل أقفاصهم بالترحيب و التعريف على أسمائهم،

كانت أصواتهم ترفع معنوياتنا، وقد تفننوا بالأساليب والحيل على سجانيهم، ليمرروا لنا بعض الإشارات والحاجات التي كانت ضرورية لوجودنا.

ذات صباح وصلتنا أشياء بالغة الأهمية ، أطايب من الطعام وفرشة اسفنج وبشكير، وورقة كتب عليها اسم السجينة جميلة البطش، ثم أتبعتها برسالة كتبتها على ورقة علبة تبغ ، وصفت فيها نفسها: سجينة المؤبد ! وعرفنا تهمتها بأنها من المنظمة الشيوعية العربية، وجميلة من أهالي القدس المحتلة .

أما كلمة المؤبد فقد شعرنا بالإحباط لسماعها، كيف لهذه الفتاة التي لم نر وجهها أن تقبع خمسة وعشرين عاماً هنا، أمضت منها سبع سنوات، ولكنها لا تزال تتواصل مع كل جديد قادم إلى هنا، تتصارع مع نفي نفيها من أجل الحياة !

كسر وجودنا روتين تلك المهاجع والممرات ، أثرنا شجون من كانوا يقبعون منذ سنوات، أحدثنا ضجة وصخباً في الممر، نطق الشباب بأسمائهم وكذلك نحن .. سلامات وتحيات دون أن نرى الأيادي، ليتها كانت تلتقي بأيدينا.

نحن العشرة، في الليل الأول هنا، عالم خاص جداً، كل شيء فيه خاص لا شبيه له إلا السجن، السجينات الأمهات تذكرت أكبادها ، وصديقتي تذكرت حبيبها، وهي لا تعرف إن كان قد اعتقل أم لا ؟ ما من خبر عنه ! وهي لا تستطيع السؤال عنه! بقي سؤالها في القلب .

السيدة أم عجاج ، كانت على موعد مع الأمومة إنها حامل في شهرها التاسع ، اعتقلت من بيتها ، وشاهدت زوجها في الفرع .

كيف لهذه الزريبة أن تتسع لنا، المهندسات، والطبيبات، والمعلمات، والأمهات.. والحبيبات !

كيف لهذه الزرائب أن تتسع لهؤلاء الفتيان الصغار ، الموقوفين كرهائن بسبب تقديمهم مساعدة لآبائهم وإخوانهم من الإخوان المسلمين، كان هؤلاء الشبان القاصرون يستخدمون كخدم لعناصر الأمن.

مئات من المعتقلين السياسيين يرقدون في تلك الزرائب والأقنان المخفية عن أنظار العالم.

شهر كامل عشناه هنا، تعرفنا على بعضنا وقصصنا لبعضنا قصصاً عن حياتنا بالتفصيل الممل، حدثتنا نهاد عن تجربة اعتقالها السابقة ، هي وأخوتها وزوجها بسبب انتمائهم إلى رابطة العمل الشيوعي. وذكرت أن الإعتقالات كانت تتم على الشبهات، وعلى الشكل والملامح الطبيعية للبنات اللواتي لم يستخدمن حمرة الشفاه والكريم، و كن يرتدين بنطال الجينز و الخفافة .

كانت نهاد قد بدأت نشاطها السياسي مع أخوتها في البيت قبل دخولها كلية الهندسة أو كما تقول منذ نعومة أظافرها .

تنوعت أوقاتنا !. يومٌ ممرٌّ في وجودنا هنا بلا تهم ولا مبرر، ويوم حلو نبتكر فيه شبه مسرح نمثل عليه مشاهد و فقرات هزلية، نقلد أصوات السجانين ، وأوامرهم على غرار (وع من هناك ...)

يوم مُرٌّ ! . لأنه لم يكن هناك سبب حقيقي لوجودنا هنا، فقد اعتقلنا كرهائن بدلاً من الأسماء التي كانت مطلوبة والتي سئلنا عنها.

دون مقدمات انفتح باب الزريبة وأفرج عنا نحن البنات العشرة.

نقلنا بسيارة الفرع التي أنزلتنا وسط المدينة ليلاً، لم نذهب إلى بيوتنا مباشرةً، ذهبنا أولاً إلى بيت صديقتي شيراز حيث تم اعتقالي، لا أعرف إن كان ذلك تحدياً عفوياً ؟ أم كان بسبب الحميمية التي ولدت من الظرف الذي وجدنا أنفسنا فيه، تلك العلاقة الحميمية التي دامت بيننا ووطدت علاقتنا واستمرت بيننا على نقيض العلاقات التي نشأت بين البنات بعد تجربة الإعتقال الأخيرة، لم يكن هناك علاقات حميمية بين غالبية البنات والذي أعرفه أن العلاقات القائمة بين البعض علاقة مجاملة وتعوّد.

كان للحزب دوراً في تقوية أواصر الصداقات والعلاقات بين الرفاق فبغيابه غابت الروابط واختزلت كثير من المفاهيم التي كانت سائدة.

عدنا لنشرب الشاي ، بعد شهر في ذلك المنزل، ضحكنا كالمجانين وبكينا صامتين وسردنا حكايات السجن .

وتساءلنا : لِمَ اعتقلنا ؟

أما أنا فلم أعرف إذا كان اسمي وارداً في قائمة الاعتقال. ربما لأنني تعرفت على الشاب " الضيف "، في الرحلة الجامعية، واعترف على كأس الشاي الذي شربناه معاً في المقصف المركزي.أم كان صدفة، بسبب وجودي في منزل صديقتي!.

أما شيراز فلم يكن لها أي علاقة مباشرة بالعمل السياسي ولكنها اعتقلت لمجرد أن صديقها الطبيب كان مطلوباً للأمن وهو صديق لأحد الشباب الذين تم اعتقالهم ! .

عرفنا عن اعتقاله فيما بعد .

واعتقلت صديقتها بداية لأنها كانت تشارك شيراز بالسكن.

والسيدة أم عجاج الحامل في شهرها التاسع، والتي ستصبح أماً بعد أيام، اعتقلت بتهمة انتماء زوجها للحزب وكان قد اعتقل سابقاً بتهمة رابطة العمل الشيوعي.

والرابعة طالبة بكالوريا اعتقلت هي وأخوها بسبب استقبالهم أحد الشباب المطلوبين.

والخامسة ليليان كردية متعاطفة مع اليسار، كانت معلمة وكشفت خلال عملها شيئاً عن آرائها ووجهات نظرها.

كانت نهاد قد حددت خيارها السياسي ولكن لم يكن لديهم دليل على علاقتها بالحزب وقد تم اعتقالها لأنها باتت من المعروفين لأجهزة الأمن.

أم مليك معلمة الرياضة ، كان لاعتقالها سبب مشابه لاعتقال نهاد، فقد شاركت نهاد بالاعتقالات السابقة التي طالت رابطة العمل سابقاً.

أما باقي الطالبات فقد اعتقلن من الحرم الجامعي، بناءً على تقارير من فرع الجامعة.

بعد تلك الاستراحة القصيرة في بيت شيراز، ذهبت إلى بيتنا، رافقني كل الصديقات اللواتي اعتقلن معي، أظهر أهلي أمامهن تفهمهم لما حصل، واحتفلوا بعودتنا، وتعاملوا بحفاوة لائقة، أما أنا فشعرت بأرقهم ، فقد تحملوا هذا الموقف بصعوبة.

كانت والدتي ساخطة، أعلنت رفضها الكلي لعلاقاتي مصرةً على ابتعادي عن كل هؤلاء الفتيات تجادلت معها كثيراً ، ودافعت عن قناعتي، وقلت لها كل ما يصيبني هو من صرّتكم التي حملتموها عندما هُجّرتم، تلك الصورة لن تغيب عن ذهني، سأنتقم لمعاناتكم ومأساتكم! هي المسؤولة عن كل ما يحصل لي ! ولن أتراجع مهما كان الثمن !

سأقدم كل التضحية من أجلكم.

لم يكن هناك حدود لخوف أمي عليّ، أربكها حديثي حتى أبكاها! وعرفت أن عزلي عن أصدقائي لا يفيد بشيء! إلا أن رغبتها كانت تغيير أجوائي الصداقية.

كان أخوتي يستمعون إلى حوارنا وجدلنا، وقالت لي أختي التي تصغرني، غيابك وسجنك هذا أتعبنا جميعاً، و بالتأكيد أتعبك فنحن لم ندرس كما يجب، ولم نأكل كما يجب، حتى أنِ أمي لم تسمح لنا بمشاهدة التلفاز، لم تكن تطهو لنا الأطعمة التي كنتِ تحبينها !.

كانت حياتنا مغمورة بالحداد والحزن.

أضافت: لماذا تنتحرين ؟

فلسطين لنا كلنا ! وليست لك وحدك !

لم تقفل ملفاتي ولم تنته تلك الزيارات، فقد عدت في رحلة ثانية قصيرة إلى فرع آخر.

فرع آخر

قمت بزيارة إلى صديقتي أم مليك، كان الفضل لفرع الأمن السابق بتعارفنا، كانت تقيم مع طفلها وصديقتها ، وهي طالبة جامعية في كلية الطب .

كان زوج صديقتي مختفياً عن الأنظار (مطلوب) وهي لا تعرف عن أخباره إلا ما ندر، لا تعرف إن كان قد اعتقل أم ما زال طليقاً.

في ذلك المساء ثمة مستجدات طفيفة، في بيت صديقتي كنت في الصالون مع الصديقتين، و كان الباب الخارجي يطل مباشرة على مكان جلوسنا. دوى طرق على الباب وصوت همجي، كأنهم يريدون خلع الباب، لم يكن لديهم ذرة من صبر حتى يفتح الباب بالطريقة الحضرية، التي تفتح بها الأبواب عند قدوم زائر، لأنهم ليسوا بزوار عاديين. فُتح الباب ، وكنا ثلاثتنا، والطفل الصغير بمواجهة القادمين، دخلوا البيت وأشعرونا كأننا متلبسين بجريمة ما، يبدو أن مهمتهم هذه المرة أكثر تعقيداً. تفتيش لأثاث المنزل، قُلبت المحتويات وأصبح عاليها واطيها، مصادرات للكتب، وبعض المحتويات المنزلية، التي يحبها أولئك العناصر المفتشون، صادروا كرات ومضارب اللعب، كانت تستعملها صديقتي، وقالت لهم هذه الكرات ليست تهمة وليست ممنوعات، تباع في الأسواق والمحلات ، أداروا ظهورهم ولم يعقبوا بشيء.

أنزلونا ثلاثتنا، ووضعوا الطفل عند بيت الجيران، وأوصتهم صديقتي أن يسلموه إلى والدتها وقد أعطتهم عنوان أهلها .

نزلنا الدرج وصراخ الطفل لم يغب عن أسماعنا !

فرع آخر هذه المرة، وجوه جديدة، يبدو الشعور بالنصر على محياهم ، لم يخب ظنّ صديقتي، فقد كان زوجها هنا بالفرع . كان قد اعتقل قبل وصولنا.

لكن ما أهمية وجودي! أو علاقتي أنا ! .

تساءلت بيني وبين نفسي : أحضرت صديقتي لأنها زوجة الشاب المعتقل، جيء بها لتسأل عن زوجها، و عن أسماء أصدقائه ورفاقه؟

والصبية الثانية وأنا ما هي التهم التي سيوجهونها لنا ؟

بسرعة البرق تصبح متهماً حتى ولو كنت تملك أدنى معلومة.

لماذا يكيلون لنا كل هذه التهم ؟

لم أكن أدري ما معنى الاسم الحركي؟

وما معنى خلية ؟ فصيلي السياسي الذي التزمت به يعمل بشكل علني وكل شيء مكشوف ! فلماذا يوجهون لي كل تلك التهم ؟ هل ليبرروا لأنفسهم التعذيب الذي يمارسونه علينا ؟

احتجزنـا أسـبوعاً في زنـازين، تحتـار في معرفـة الكيفيـة الـتي تم بناؤها لشدة ضيقها . انتهى التحقيق مع الزوج، ونقل إلى سجنه الدائم.

وأفـرج عنـا نحـن الثلاثـة. الصـديقة وأنـا لم نكـن نعـرف لمـاذا اعتقلنا؟

هل أثبت المحقق شيئاً.لا لم يكن هناك أي تهمة، ولا اعتراف ؟

كانت الصدفة فقط ! صدفة الزيارة التي كنت أقوم بها !

وفي طريقنا إلى بيوتنا، تساءلنا إن كان موسوليني وقراقـوش قـد حرّما لقاء الأصدقاء؟

من ليـــس له تاريخ ، لا مســتقبل له ...

وتاريخنا ليس المعتقل بحد ذاته،

بل الحفاظ على ذاكرة المعتقل

(ســهـــى بشارة)

الاجتياح الإسرائيلي و حملة الاعتقالات

الحرب ضد الفقراء...

ضد النساء والأطفال...

ضد المحبين العاشقين....

ضد المناضلين الشرفاء ضد الوطن .

الحرب أسعفت المتخاذلين..

أسعفت الأنظمة...

أسعفت العدو ...

الحرب ضد قلبي الذي خبأته ليوم النصر، الحب تالياً .

تلك الحرب أعادت إليّ صديقي مهزوماً ، تسعون يوماً من الحصار . اجتاحت إسرائيل الجنوب والضاحية وحاصرت عاصمة الثقافة والحرية، وكأن هذه الأحداث وقعت في كوكب غير كوكبنا .

انتهت الحرب وتم اتفاق بانسحاب إسرائيل إلى حدود نهر الليطاني وخروج المقاومة والميليشيات .

ستصل البواخر التي تقل المقاتلين ممن حوصروا في بيروت ، ولا بد لي أن أكون أولى المستقبلين، صديقي محمد ورفاقه. تجمع حشد من المستقبلين في الميناء منذ الصباح، كانوا من جميع المناطق، كان وصول البواخر متأخراً قليلاً، إجراءات أمنية وتفتيش القادمين مع البواخر، تم تسجيل أسمائهم ونزع أسلحتهم الفردية، بدوا لنا أرتالاً.

في المقدمة د جورج، كان مسبلاً يده كأنها مثبتة على شيء ما ، يلوّح بيده الأخرى وكأنه مجبر على ذلك!

أهي وعكة صحية؟

أم نكسة جديدة حلت ؟.

شاهدت صديقي محمد أيضاً من بعيد يجر أذيال الخيبة والانكسار، نوح بيده بخجل، تبسم بخجل أيقنت أنه مصاب بطلق أو بشظية ما، وصل إلى مكاننا وسلم رأسه للمحبين، قبلناه ولم يشاركنا بالمثل، كان اللقاء ميتاً بيننا، لم يرد على حرارتنا بالمثل.

تفاجأت و لم تصدق عيوني أن هذا القادم هو محمد ! محمد الذي قضى مساءه قبل التحاقه بالحرب، وهو يعزف و ينشد أناشيد للوطن وللفدائيين ، لم يكن حبيباً، كان ذلك بداية علاقة لكنها كانت شديدة الودّ. اكتشفنا ذلك من خجلي عند الحديث معه، وكان هو يتلعثم بحروف كلماته، ويفقد استرساله أثناء حديثه معي ، كنت أشرد كثيراً خلال جلساتنا، لم أركز سمعي عندما كان يعزف على عوده، وكنت

أسأله في اليوم التالي عن اسم المقطوعات التي كان يعزفها. لم يكن يعقب على ذلك، كان يحيلني لشاهد آخر يسكن في جسده .

لم أحضر في ذلك اليوم محاضراتي ، و تغيب هو عن امتجاناته كان سيلتحق ليلاً بالرفاق الذين سبقوه إلى ساحة الحرب الصغيرة بيروت.

قضينا ساعات نجوب فيها شوارع مدينتي وحدائقها ومقاصفها نودعها معاً، سهرة صغيرة في بيت صديقنا غانم أنشدنا للوداع وللحرية وللفدائيين وللقلوب التواقة إلى لحظة نصر.

ليلة ونهار كان انتظاري في الميناء لاستقبال الرفاق القادمين لم أشعر بالتعب أو الجوع أصوات هدير البواخر كانت تتردد على مسمعي أنا والمحتشدين .

فتشت بين الوجوه القادمة التي بدأت تشق طريقها بين حشود المستقبلين ، لم ألمح نضال الذي التحق مع محمد ، مؤجلاً دراسته في كلية الآداب فرع اللغة العربية قلت من المؤكد أنه لا يزال في كوة التفتيش! أو أنه مع المصابين الذين لم تقلهم تلك البواخر ! كنت قد عرفت نضال ، من شدة خجله لقبناه " بالشيخ " كان معروفاً بقوة حبه للأطفال وللمقاومة، عرفت مقدار توقه للعودة إلى قريته، إنه من قرى مدينة نابلس، كانت إسرائيل قد حرمته من العودة، بسبب تأخره في تقديمه تصريح الدخول. الطريقة التي اتبعتها إسرائيل لحرمان الطلبة من العودة، كان هذا شكلاً من أشكال

الترانسفير ، لتحافظ فيه على يهودية الدولة، ولتتخلص من مشكلة الاتساع الديمغرافي الذي بات يهددها. كانت تحرم آلاف الطلبة الذين يتابعون دراستهم خارج الوطن المحتل من العودة إلى ديارهم .

عرفت نضال أكثر الطلبة فقراً وأكثرهم سخاءً، سألت صديقي محمد عنه ، لم يستطع التفوه بكلمة، ولم يكن لديه القدرة على أي إجابة، عندما ذكرت له اسم نضال أشار إلى صديقة كانت قادمة مع القادمين تعرف عليها بالحصار، كانت لا تزال بملابس الفدائية لم أعرفها من قبل، عرّفني على اسمها رآمة كانت تبدو شديدة الحزن عندما سمعت سؤالي:

وقالت تقصدين الشهيد نضال ؟

وأكملت:العين لا تقاوم المخرز !

لم يبق من بقايا جسده سوى الفحم ! .

لقد تصدى للإنزالات الإسرائيلية في خلدة ثبت على صدره الاربجي وطارت روحه مع قذيفته ، قاتلنا معاً في خط الليلك ، وبعدها انتقل إلى خلدة عندما اشتدت حدة المعارك .

كان يقاتل عن الأمة التي تجاهلته، وتجاهلتنا كلنا في تلك المعركة. لم تكن معنا في أي شيء لم تقدم أي معونات، كانوا معنا بالصوت فقط.

وأضافت حتى الزعماء المحليون الذين حوصروا معنا قبعوا في الملاجئ ، ولم يتردد على زيارتنا بالمواقع إلا أبو عمار.

أصبحت تلك الفدائية من صديقاتي المقربات ومازالت كذلك زرتها كثيراً، أقمت عندها أياماً ، تشابهنا بكثير من الطموحات. تشابهت قصصنا بالاعتقال، على الرغم من اختلاف بلدان السجون، اعتقلت في الأردن ، بتهمة انتمائها إلى حزب يساري. كانت قد اختارت دراستها في الأردن في المعاهد التابعة لوكالة غوث اللاجئين، تشاركنا بالتاريخ واختلفنا بالطباع ، ولكنه خلاف قوّى من صداقتنا. سألتها مرة : عن معنى اسمها؟

فقالت أنا رامّة القدسي

عائلتي معروفة وهي أشهر من علم، أما الرامّة ! فهي اسم قرية فلسطينية تقع في مثلث الجليل الأعلى.

حدث الاجتياح الإسرائيلي لبيروت، لم يكن الهزيمة الأولى، كان تتويجاً لمسار طويل من السياسة الخرقاء، حدثت بعده مذبحة صبرا وشاتيلا لتنضم إلى قائمة المذابح التي ارتكبت بحق الأبرياء، و لتزيد من أوسمة الصبر و ضبط النفس. وأفضت التفاهمات بين فيليب حبيب والعربان إلى خروج المقاومة من بيروت، إلى المنافي والشطآن .

كان لعاب التسوية يسيل من البرامج المرحلية . ارتفع شعار الدولة المستقلة ودولة بالمنفى، وانقسم النضال والمناضلون، وتصدرت سياسة لعم! عناوين صحف المرحلة .

تفتتت بنية المقاومة ومنيت بهزيمة عسكرية وسياسية بعد الاجتياح، هزيمة اليسار واليمين في آن معاً.

الساحة الفلسطينية تعمّها الفوضى السياسية، كل فصيل فلسطيني بات فصيلين، انقسم فصيلي السياسي الذي التزمت معه إلى فصيلين، تصارعا معاً في حرب ضارية دارت في مخيمات شمال بيروت، مخيم البداوي ومخيم نهر البارد ، واشتد الصراع في طرابلس، وأفضى إلى خروج ياسر عرفات من الساحة إلى تونس.

كثرت المحطات الفاسطينية، لم يعكس الموقف السياسي الرسمي الفلسطيني حقيقة مواقف الشعب الفلسطيني، كان أداء الموقف الرسمي أقل كفاءة إذا قورن مع عدالة القضية ، لذا كان لا بد من إعادة نقد التجربة بعد بيروت، حوارات ولقاءات بين جميع الألوان والأطياف السياسية.

تشكلت مجموعات من الشبان نشطت كمجموعات مستقلة ، عقدت ندواتها وحواراتها العلنية في المخيم، وأعقب ذلك أنشطة جديدة لمجموعات أخرى، عرفت باللجان الشعبية، تخطت هذه اللجان حدود المخيم ، وأقامت حوارات مفتوحة مع أحزاب من المعارضة الداخلية، واستمر هذا النشاط حوالي العام، وفي مناسبة يوم

الأرض عام ١٩٨٦ حكم على هذه المجموعات، بالفناء، طالتها الاعتقالات وطالت كل من كان يتحرك في تلك الحلقات.

أدينوا جميعاً. كل ذلك من أجل تحقيق التوازن الاستراتيجي الداخلي والخارجي ! أما التوازن الداخلي ، فكان بمحاصرة الأحزاب والجماعات والأفراد من يسارها إلى يمينها وتفاقمت حالة الرُهاب و امتدت إلى الفئات الشعبية.

كانت تلك مرحلة من الحراك السياسي النشط، من الجنوب إلى الشمال شارك فيها كل من يتوق للخلاص والحرية، وشاركت أنا ببعض النشاطات، التي كانت دائرة في منطقتي.

كانت جولات الاعتقال و استدعائي لفروع الأمن ، قد زادت معرفتي بالمعارضة، عرفت العديد من الناشطين والمعارضين والمطلوبين. وأصبحت من المتابعين للأنشطة وللمنشورات السرية، وزاد حبي لقضيتي ولوطني، وزادت الممنوعات حولي. وأصبحت واحدة من الملاحقات من قبل الأجهزة الأمنية.

ما أجمل ما كنا نحلم به ..

ما أجمل تلك الحياة التي كنا سنحملها للغد ...

ما أجمل الإنسان حين يعيش بلا ظلم ولا اضطهاد ..

ما أجمل أن ترى وطنك محرراً من كل أنواع الاغتصاب . .

بيد أن هذا أزعج الآخرين ... أزعجهم حقاً ..

فحاربوه وحاولوا قتله ، خيول مغولية ، وعواصم تلاقت في لغة الموت لكل فجر آت ، قياصرة قرروا اغتيالنا... وأنا من منفى إلى منفى .. ومن موت إلى موت .... فلسطينية اللون كالسرمد .. فلسطينية اللون مثل يافا .... أنادي من صمت بردى واليباس .. أعادي كل من ... يختزل يافا إلى برتقالة".!

طاردتني دورية البوم المغولي وأنا أحمل رزمة جرائد ممنوعة تكتب عن فلسطين ... جز مات جند حاصرتني .. رجال الموت في الأزقة يتكاثرون كالبلاط المتسخ ..

فأي ليل سيهزمني؟ ..

بت أهجس بزوار الليل ، أحاول أن أهدئ نفسي. لست الأولى ولست الأخيرة. ولكن ما من هدوء ولا سكينة عرفتها روحي، لا أمن في نفسي، لكني لم أوافق على التخفي الذي اقترحه رفيقي مضر، مضر الذي استشهد لاحقاً في زوايا تلك الأقبية . كنت أتوقع اعتقالي، لكن التوقع شيء والحقيقة شيء آخر .

توسعت حملة الاعتقالات في العاصمة ، وامتدت إلى المدن الأخرى. وصلت الأمور إلى نهاية المطاف .

كان يوم اعتقالي يوماً لا ينسى ، في الصباح كنت على موعد مع صديقتي حنان التي كانت قد اعتقلت بعد خمس شهور من

اعتقالي، والتي عرفت باندفاعها ونشاطها في المخيم، لم تفوت أي عمل جماهيري تجاه القضية الوطنية والوطن المسلوب.

المكان في الحديقة العامة، الحديقة التي هي مـأوى لكـل الـزوار والمواعيد والمحبين، كانت تلك الحديقة تجاور مدرستي الثانوية، كنت كل صباح على موعد معها ، كانت صلة الوصل بين مدرسـتي وبيتنـا، حفرنا أنا وصديقاتي أسماءنا على جذوع أشجارها، غالباً مـا كنـت أتفقد تلك الذكريات، الرسومات والأسماء المحفـورة علـى الجـذوع ، ثم أتناول قهوتي في مقصفها المعهود .

أمضينا حوالي الساعتين أنا وصديقتي حنـان في القسـم النسـائي مـن الحديقـة ، تحـدثنا مطـولاً عمـا يجـري في دمشـق. ثـم انتهـت أحاديثنا. وأغريتها بالـذهاب معـي إلى البيـت، علنـا نرفـع معنوياتنـا بالطعام الجيد، طعام الأمهات. فوافقت على اقتراحي وذهبنـا متمهلـتين، وصلنا إلى البيت، لكن صديقتي كان عليها أن تعـود علـى أعقابهـا دون أن تنـال شـيئاً مـن المعنويـات الـتي خططنـا لهـا، فالمفاجـأة كانـت بانتظاري ، لمحت وجوهاً لم أعهـدها في بيتنـا ، عنـدما فتحـت بـاب المنزل لأهم بالدخول كانوا بانتظاري في الداخل لم يتركوا لي عصر هذا النهار ! كانت ردة فعلي سريعة، دخلـت وأغلقـت البـاب بسـرعة حتى أحول دون دخول صديقتي، ولم أنس أن أرمي لها حقيبتي. علّها تفهم قصدي، دخلت وأنا أفكر في ذلـك، كانـت الحـيرة واضـحة علـى

ملامحي. والحزن ينساب من عيون أمي، جف ريقها، وتعثرت كلماتها، قلب الأم دليلها كانت متيقنةً مما سيحدث وماذا ينتظرني .

شعرت بغصة لما هي فيه . حاولت أن أظهر لها ولأخوتي رباطة جأشي. وتصرفت بلا مبالاة وكأن وجودهم لا يعنيني .

سألتها شو طبخت لنا اليوم يا حجة ؟

فقاطعني أحدهم وقال لي

المعلم طالبك بالفرع

وأجبته: أنا

فقال لي فقط خمس دقائق ؟

وسنرجعك إلى بيتك

هززت برأسي وقلت له قبل الغداء أم ؟

علا صوت بكاء أمي وأخوتي وأعتقد أن ذلك دفع هؤلاء للموافقة على اقتراحي بالتأخر قليلاً. لا طعم للطعام، ولا لون للأشياء، رغبت فقط بالجلوس دقائق مع أهلي، والتمعن في وجوههم، كنت أنظر إليهم بطرف عيني واحداً واحداً، دون أن أشعرهم بذلك، الشخص الذي تمنيت أن لا يأتي في تلك اللحظات هو والدي، كنت أخشى مجيئه، ويرى الوضع الذي نحن فيه، فهو مريض بالقلب، اكتفيت بالدخول إلى غرفته والنظر إلى مكتبته التاريخية العريقة.

ربع ساعة فقط كانت فرصة لعيوني لتوديع أرجاء بيتنا .

ضاق صبر الدورية الكامنة في البيت، فوقفوا ورشوا تنبيهاتهم وتحذيراتهم رشاً .

بلا شوشرة ولاضجة ؟

طولّنا بالنا كثير عليكم ؟

رفضت أن يمسك أحدهم بيدي تحت ذريعة أنهم لا يحبون الشوشرة. نزلت الدرج وهم متحوطون حولي، ولكنهم لم يستطيعوا منع أصوات أمي وصراخ أخوتي، وخرج الجيران وشاركوا أمي بكاءها، تعالت أصوات الجيران أم حسين وأم ماجد وأم صالح

كانوا ينادون .. والله يا . .... ما بتستاهلي وخزة شوكة ..

الله يخفف عليك ويكسر أيدهم أولاد ..!

قادوني معهم إلى الذي أعطاهم الأمر بإحضاري . إنه "المعلم" هكذا ينادونه.

كنت أنا أولى القادمات، بدأ استقباله بعبارات السخرية والألفاظ الوسخة التي اعتاد عليها ، كان الوقت عصراً، ضرب العصا التي كانت بيده على الطاولة ... واستنفر كل من كان واقفاً من رجاله، ولم تمضِ لحظات على دخولي لهذا الوكر، حتى تغيرت معالم المكان، ومعالم الجوقة "العناصر" . أما معالمي أنا فلا يعرفها سوى أمي التي ولدتني.

تعاملوا معي كأنني مسؤولة عن كل أفراد الحزب في المدينة، لأنني بالطبع كنت القادمة الأولى إليهم وهم بحاجة إلى الكثير والكثير من الأفراد ، والمعلومات والبيوت ،جولات التحقيق، نتفت ملابسي وجسدي! أمر المعلم جلاده خليها بخلقة ربها إن لم تعترف ؟

جلادون كثر التفوا حولي، صراخهم ملأ فضاء المكان، كل واحد منهم يبدو كأنه هو المسؤول الأكبر، متدربون متمرسون تسابقوا على دحرجة جسمي بين أرجلهم كما لو أنهم في ملعب كرة قدم، وأما الكرة فكنت أنا، كانوا هم المنتصرون بكل الأشواط .

معركة لا توازن فيها

أنت الأبكم

و المقيد

و المتهم

وأنت الخصم .

لم أعرف كيف انتهى التحقيق الأخير معي ، صحوت من غيبوبتي وأنا ممددة أرضاً ووجدت الجلادين حاملين خراطيم تصب الماء على جسدي وكأنهم في مغسل سيارات ! وكانت آثار إقياءاتي على ملابسي ورقبتي ، ثم سحبوني جراً من يديّ وأنزلوني إلى إحدى الدهاليز الجاهزة لإقامتي !!

شهر ونيف حسبته دهراً على وجودي، وانتهى التحقيق. ولكن إعادة التحقيق أمر مكشوف وممجوج مبتغاه الإذلال النفسي، وابتزاز ما تبقى من كرامة في أعماق الروح .

مساء جديد، مسرحية جديدة رأيت فصولها ، عندما أحضرني السجان من منفردتي إلى غرفة صغيرة، تطل على ساحة داخلية تقابلها غرف الضباط والرتب العليا ، كانت تحتوي على سرير عسكري وطاولة صغيرة، أدخلني الغرفة و أقفلها وذهب راكضاً، أذهلني ما رأيت فيها من أكوام الملابس والأحذية الرجالية، كانت أولى تخميناتي، بعد مشاهدتي هذا المنظر ، أن هناك مصادرة ما لمحل بالة لأن العناصر يمارسون هذا السلوك، كانوا يصادرون ممتلكات الباعة الجوالين وبائعي الدخان ويحضرونها إلى القسم ويتقاسمونها ولا يخلو هذا التقسيم من الشجار والصراخ من أجل الاستيلاء على الحصة الأكبر، كنا نسمع أصواتهم في مثل تلك المناسبات .

لم ألبث طويلاً في هذه الغرفة، فقد أخذني السجان إلى غرفة واسعة يتوسطها كبير المعلمين؟

أربعة من الزائرين، هم أربعة من الشباب معتقلون للتو قابلوني معهم وسألوني إن كنت أعرفهم فأجبت لا؟

وعدت إلى غرفة السجان، وكلي حزن و مرارة على إحضار هؤلاء الشباب إلى هنا. وبعد ساعتين تقريباً، سمعت الصراخ يعلو

ويتجاوب في الأرجاء، لقد بدأت جولات التعذيب والتحقيق، انتهت تلك الليلة الجريحة ولا بد من ليلات أخرى مماثلة.

حاسة السمع في السجن هي الأقوى لدى السجين، فهي تترصد وقع خطوات السجان فتح الأقفال وإغلاقها، وأحيانا خربشة الزواحف من الفئران والسحالي والصراصير .

في الليلة التالية حوالي منتصف الليل،كنت كلي سمع وتنصت لأعرف أخبار الشباب وأين انتهى بهم المطاف، فباغتني صوت حذاء أنثوي يقترب أكثر وأكثر من منفردتي، أيقنت أنني أنا المقصودة، وحبست أنفاسي، وارتجفت من الحقيقة التي أصبحت قريبة مني،ثم فتح باب زنزانتي، وانبهر نظري على نحو لا إرادي.

عرفتها! و بلعت ريقي! كانت بهية الطلة، البراءة في تقاسيمها بل إنها تسمو على البراءة ذاتها، ثيابها نظيفة، جميلة، جذابة، كيف لهذه المساحة أن تتسع لي ولها، كيف لهذه العصا أن تلمسها، وكيف لهذا المعلم أن يوبخها ويشتمها، إنها صديقتي في الكلية سهى ، التي شاركتني الندوات حول قضية المرأة ، ذلك النشاط التطوعي الذي كنا نقوم به في بيوتنا ، كنا مجموعة من الصديقات نرغب بتأسيس صالون للحوار يطرح قضايا ومشاكل المرأة ، ولكن لم يكتب لهذه الظاهرة الاستمرار ، لأنها أزعجت الجيران لتخوفهم واكتئابهم من السياسة والسياسيين ، على الرغم من أننا كنا نريد من الندوة أن تكون

ظاهرة اجتماعية ، كالظواهر التي سبقت في تاريخنا ، ولماذا لا يكون لنا صالون " مي زيادة " . !

ألقت صديقتي نظرةً علي ، توجعنا معاً دون أن ننبس بأي كلمة، أما السجان فكانت غايته أن تراني سهى وأنا بهذه الحال المهترئه، لكي تتجنبها وتتكلم بكل ما تعرفه ، هذا ما نصحها به، أتى بها لتتلقن درساً مسبقاً .

مضى ما تبقى من الليل لم تعرف عيوني النوم، كنت أجهز نفسي لما سيكتبه لنا الصباح القادم، ماذا سيحدث وكيف سيجري التحقيق مع سهى؟

وكيف سيتم ربطي بها ؟

أسئلة توالت على رأسي، لكن تغييراً دراميتيكياً حصل بعد اعتقال شابين آخرين أخرجوني لمقابلتهم ، ليروا إن كنا نعرف بعضنا أو إن كنا سنبوح بمعلومات ، كان هذا هو أمل المستجوبين ؟

شاهدتهم جالسين أرضاً لا ثياب عليهم سوى اللباس الداخلي، يد أحدهم ملطخة بالدماء، وجوم بالوجوه، وظل ابتسامة مخفية في العيون لتخفف قهرنا المكتوم ، نظرنا إلى بعضنا ، إنه قريبي وجاري خالد،و صديقي فضل. إنهم أصدقائي الأعزاء على قلبي و المقربين إلي .

سألني المحقق هل تعرفينهم ؟

فأجبت: خالد قريبي .

ثم سألني عن اسمه الحركي ؟

وكرر سؤاله: هل اسمه الحركي كذا ؟

فقلت لا أعرف اسمه الحركي.؟

سئلت عن الآخر ؟

فقلت لم أعرفه ولكني شاهدته مرة مع خالد ، ولا أعرف عنه أي شيء؟

لم أكن أعرف إن كان كلامي هذا قد أرضى أصدقائي الاثنين المنهكين.

كانت يد خالد مضرجة بالدماء ، وكدمات زرقاء تعلو جبين فضل، كان الفرع مسلخاً للبشر.

بعد أن سئلت واستجوبت ، انتهزت فرصة وجود "المعلم" وطلبت منه أن ينقلني إلى المشفى، لأنني كنت على يقين من أن وضعي الصحي أخذ بالتدهور، فقر الدم، والإمساك الشديد، والباسور النازف كل هذا زاد على سجني سجناً .

الإمساك؟ لا تستخفوا بهذه الإصابة ، إنها ليست متعة ولا لذة بل هي صلة الوصل بين الحياة والموت ، وأنا أحب الحياة ! كان طلبي شديد التواضع، راحة صغيرة فقط !! فقط. طلبت منه ذلك بصوت

خافت لكي أخفي ضعف جسدي عن رفيقيّ فسجل اسمي وقال سأتصرف.

أعادني السجان لكن خطأ حدث حين أعادني إلى المكان الذي وضعت فيه سهى تحدثنا على عجل، وأعطتني علبة سجائرها، لظنها أنه سيفرج عنها، فقد وعدها النقيب بالإفراج عنها .

أخبرتني بسرعة وباختصار سبب اعتقالها الذي تم في بيت صديقها، كان من بين الأربعة الذين اعتقلوا في اليوم السابق، وحين ذهبت سهى لزيارته في منزله، تفاجأت بوجود دورية مقيمة في المنزل. لكنها اعتقدت أن وضعها في مأمن ! . لم يكن حديثنا قد انتهى حين عاد السجان مسرعاً ليصحح خطأه .

السجن الخربة

لم أعد إلى مكاني حيث كنت. سيق بي إلى خارج المبنى ، إلى مكان آخر يبعد بضعة أمتار . قدرت أنه المبنى القديم للفرع ولا أعرف أصله عثماني أم فرنسي؟ تجاوزنا بابه الحديدي الأسود، وهناك في الداخل بدا لي المكان مكباً للقمامة والردم وليس فيه مساحة صالحة لسكن أي كائن! مكان مهجور معزول بالمطلق .

قال لي السجان : هذا بيتك الجديد !

يا إلهي هل ضاق عليهم وجودي في ذاك المبنى الذي كنت فيه، لم أفهم لماذا جاؤوا بي إلى هنا، إلى هذا المبنى المهجور.

وضعت في زنزانة صغيرة لها طاقة تطل على بقايا غرف صغيرة مهدمة يبدو أنها كانت أطلالاً لزنازين قديمة، وآثاراً لحفر تجمعت فيها مياه آسنة تدل على أنها كانت مراحيض .

أُقفل عليّ باب زنزانتي و غابت أصوات أقدامه، وحين أيقنت أنه غادر المكان وقفت في منتصف الزنزانة أراقب من الطاقة صمت المكان. كنت ما أزال واقفة في مكاني، حين سمعت عودة خطواته من جديد انتظرت وصوله، كان يحمل بطانية منظرها يدل على أنها استخدمت استخدامات عديدة، سوى أن تكون غطاءً أو مفرشاً. تلك هي بطانية الروائح الكريهة وبقايا البراز والأوساخ المجففة ، وقال لي

شامتاً ، هذه نصفها للغطا ونصفها مفرش، تكلم باستهزاء لم يترك لك أصدقائك أي شيء عملوا لنا زحمة و أزمة. .

ثم أقفل الباب والطاقة معاً وذهب فحلّ علي السواد وأصوات الصراصير وأصوات قضم الفئران والجرذان التي لم أتبين مكان تواجدها. وبسرعة قصوى بسبب الخوف خلعت صندلي وضربت على الباب . لم أعرف من أين أتيت بتلك القدرة على الضرب والنخبيط، حتى أنني أزعجت كل من يعيش هنا ، في هذه الخربة وسمع صوت طرقاتي الحارس الخارجي، فجاء راكضاً ، واستغرب سبب إقفال طاقة الباب ! يبدو أن السجان الذي أحضر البطانية، كان ملكاً أكثر من الملك فقد أقفل الباب والطاقة، وأطفأ المصباح وخرج .

سألني الحارس الخارجي الذي تفاجأ بوجودي في هذا المكان :

منذ متى وأنت هنا ؟

وشو عاملة ؟

شو تهمتك " زخ علي رشاشاً من الأسئلة ؟ .

ومضى بسبيله لكنه ترك الطاقة دون إغلاق و أبقى النور الخارجي الذي كان يمدني بظلال من خيوط الضوء .

لا مكان للجلوس، ولا مكان للنوم، ولا مجال للاتكاء على هذا الجدار، لأن الطحالب والأشنيات، بدت كأنها من أصل الحيطان .

ملعب للعفن والرطوبة والقذارة، أي جحيم هذا، جحيم انفرادي شبه سري، أي الطرائد غيري ستكون هنا، ما أهون التعذيب واللسعات والكابلات والأقفال ، أمام هذا الجحر الرهيب وتساءلت : هل هذا هو المشفى و العلاج الذي طلبته من أكبر " المعلمين" ؟

هل هذا هو جزاء أن تطلب شيئاً من المعلمين ؟

أو تشكو شكوى لهم؟

قلت في نفسي، سأعتبر وجودي هنا امتحاناً لإرادتي، لن أتذمر وسأتحمل ما أنا فيه، انعدام مطلق لمتطلبات أي مخلوق حيّ ، حتى الطعام، وقضاء الحاجة،لم يكن بالحسبان في هذه البقعة المنسية.

جاء السجان ليتفقدني فتجاوزت خجلي

وسألته عن المرحاض ؟

لا تفارقهم الوقاحة إزاء أي موقف يواجهونه .

و أجاب : دبري حالك ؟

ودبرت أمري بالمكان الذي حبست فيه .

ولكن الماء ضروري جداً ، فقد مضى يوم ولم أدخل قطرة في عروقي؟

وسألت السجان في اليوم التالي

أين الماء ؟

وكيف سأتدبر أمره ؟

و شاهدته من الطاقة يفتش بين أكوام الردم والقمامة ، ثم عاد وبيده شبه إبريق قد تآكلت أطرافه العلوية وغطته الأوساخ والغبار ، لا يعرف أحد متى ألقي وسط هذه القمامة، ملأه بالماء و أعطاني إياه من طاقة الباب فأخذته .

هذا هو نبعي ! وهذه هي فيجتي ! .

وقررت ! هذا الموت الذي أنا فيه، سأواجهه بالإمكانات المتاحة،لا يهم ! الأهم هو الحفاظ على الذات والبقاء .

في كل صباح كان عناصر التفقد يأتون ليتفقدوني من طاقة الزنزانة ثم ينصرفون ، لا أحد منهم يلفظ كلمة ، طلبت مقابلة أحد المسؤولين ، كانت الإجابات بالرفض.

تبدل الحرس و ظهرت وجوه جديدة من المناوبين، وفي تلك الليلة كان صوت سعالي يدوي في ذلك المكان المقفر، وسمعه الحرس خارج المبنى ، فأقبل نحوي اثنان منهم وقد وضعا أيديهم على أنوفهم وبصق أحدهم ، وقال:

شو رائحة "فطيس" الله يعينها ، كيف تتحمل هذا الوضع ؟

وعاد أحدهم و معه كأس من الشاي الساخن وقطعة من الخبز الساخنة وتلقفتها من الطاقة . أطيب كاس شاي شربتها في حياتي ؟

ثم حذرني الحارسان من البوح لأي أحد عن مساعدتهما الصغيرة؟

لأن ذلك قد يهلكهم ؟

هكذا بدأت فوانيس الليل و أقماره تشع في ذلك العتم المريب . تبددت ظلمة زنزانتي وجاءني الغيث أكثر من المطر ، عندما انضم لهؤلاء الفوانيس ، فانوس آخر كانت أول مناوبة له

قل لي ماذا تعمل ؟

أقل لك من أنت !

صرت أعرف النظام الذي كان مطبقاً في هذا الهجران، كنت شديدة الترقب.

سمعت صوت خطوات قادمة ، صوت عنصر، كان ينادي من بعيد: هناء ، هناء

سمعت الصوت ، وظننت أن هناك فتاة جديدة ، فلم أكترث لندائه. كان غاضباً ، وهو ما أظهرته طاقة زنزانتي.

وقال : لماذا لا تردين على الصوت يا بنت الأكابر ؟

كان يتحدث بلهجة بدوية.

أجبته أنت لم تناديني . هز برأسه !

وقال: لكني ناديت لك عند دخولي .

فقلت أنا اسمي .... !

وقلت في سري لا هناء ولا هَنا ! ولا سعادة و لا من يحزنون...!

كله سواد بسواد !

وسألني : شنو اسمك ؟

لم يفهم لفظ اسمي مباشرة، كررته مرات حتى استوعب الاسم ، وأثار لديه الضحك قليلا، لأنه لم يلفظه كما هو .

سأل : لماذا أنت هنا ؟

قلت إنني من طلبة الجامعة، وهم يريدون معرفة مكان أصدقائي.

فقال لي: بكرة أشوف ! إذا كنت كاذبة أو صادقة.

ثم قال مشمئزاً: ألستِ من " بنات .... الليل"؟

عرفت مدى شرقيته من سؤاله فزادني هذا اطمئنانا ، كان على خلاف العناصر الذين قابلتهم بالفرع ، والذين تقشعر الأبدان حين كانوا يكشفون عن أجسادهم المقززة

أجبته: و هل شكلي يدل على هذا ؟

صمت قليلاً ، ثم قال : لا والله

ذهب قليلا وعاد بأسئلة جديدة ، لم أتردد بأجوبتي أي تردد، عرفته على عنوان بيتنا واسم المدرسة التي كان والدي مديرها. لم أشعر على الإطلاق بالخوف من الإدلاء إليه بهذه المعلومات، ليس هناك من أسرار، فهم يعرفون عناويننا، و تهمنا.

فلماذا يشوهوننا أمام عناصر هم البسيطة، بتلك الأكاذيب المكشوفة؟.

أردت أن يكون حديثي معه تصحيحاً لأكاذيبهم وتشهيرهم لقد تنكروا حتى لأسمائنا الحقيقية ؟

هذا الشاب الأسمر حارس السجن، لم تقو تلك الآلة والنظم الجائرة والقوانين التي تعمل على غسل الأدمغة والعقول، على تكسير شهامته البدوية.

بدا لي اليوم ساخطاً عنيداً . أخبرني بمواعيد منا وبته القادمة، وغادر لمحرسه.

الليل المظلم، يسلمني لليل نهاري، ما أسوأ نفاد الصبر والعجز عن الانتظار .

والأسوأ هو المباغتة التي تداهمك دون موعد، ففي المساء حضر النقيب وخيزرانته بيده كان يرافقه سجان

وبدأ باستجوابي قبل أن يفتح باب الزنزانة .

وسأل: هل تعرفين ... ؟

أنكرت معرفتي بأي شخص هنا .

وساقوني إلى المبنى الأول، وشاهدت الحارس البدوي، يعذب بالدولاب دون رحمة لصراخه، سقطت أرضاً من وقع الخيزرانة التي انهالت على جسدي، ولم أستطع تفسير انفضاح أمر هذا الشاب؟

بعد يومين من الحادثة استدعيت إلى غرفة النقيب من جديد، وازرقاق وجهي ويديّ كان ما يزال ظاهراً . أعيد طرح الأسئلة عليّ، قررت الصمت وعدم الكلام عن أي شيء مهما كانت النتائج. وضغط زر جرس من أسفل طاولته، فجاء الجلاد يحمل كيساً وبرفقته الحارس...! الذي كانت ساقه مضمدة. وقطع المعلم الصمت سألني قائلاً:

بدي أعرف كيف حصل هذا العنصر على هاتف وعنوان أهلك؟

خذي هذا الكيس أرسلوه أهلك صادرناه من الحارس ... وهو عائد من لقاء قريبك الذي كنا نراقبه .

و فهمت حينئذ قصة الحارس .... وسلمني أيضاً مبلغ ٣٠٠٠ل وقال النقيب متوعداً سنكسر رأسك إذا كررت ذلك.

عدت إلى ظلمتي الحالكة من جديد ولساني مشلول عن الحركة ، ولعنت تلك الصدفة التي لم تكن بالحسبان .

الذكريات هنا مثل كابوس، لكنه أحياناً محبب يشفي السجين من الحرمانات ، ويعيد إليه إنسانيته التي لاوجود لها هنا ، رحت أستعيد ذاكرتي عن المهربات التي كانت تصلني، و قد فقدتها الآن، قطعة الخبز وكأس الشاي، كانا يطردان أحيانا شبح الجوع الذي كان يطاردني .

الجوع آه منه وآه ممن اخترعه..

الجوع سنّة المعتقلات ومؤرق للذواكر

ليلتي طالت واستطالت إقامتي، ينبغي عليً كسر صمت صوتي . عليّ أن أجعل من هذا القبر حديقة، وسن وحدتي عالماً ، ومن جداري أيقونة، عليّ البحث عن سميع وقد وجدته! نعم إنه الحيط، هذا الجدار الذي لم أستطع أن أجعله مسنداً لظهري ، كان علي أن أحدثه، وسألت نفسي أليس للحيطان آذان ؟

سأحدثه!

حدثته ليلاً و نهاراً، مساءً ، وفي كل الأوقات !

كلانا مسجونان ، لا صور ولا لوحات تزين شحوبه، حرمان أبدي مُنيّ به، منذ أن تم إنشاءه في هذا المكان ، ولا قلم لدي لأرسم لوحتي وأحفر اسمي .

لم أنطق إلا ببضع كلمات بعد انتهاء الاستجواب معي، ولم يدر أي حديث بيني وبين المتفقدين من العناصر ، سوى حديثي الخائف مع الحارس الأسمر المتعاطف .

ساعات الصمت الطويلة التي كنت أقضيها كانت ثقيلة، خشيت من تصلب حنجرتي وشلل لساني. لا أحد في هذه الخربة المهجورة، سيسمع كلامي، كل الكائنات الحية في هذا المكان غير ناطقة، لا أحد سواي يجيد ذلك، صرخت عالياً في وجه هذا الحيط "الجذار

كنت أشتمه تارة !

وتارة أسأله: عن سبب وجوده هنا؟

وقلت له في البيوت نستخدمك ساتراً وفاصلاً بين الغرف ، وهنا لا فائدة منك !

لا ! أنت لم تحمني من رؤيتي للجرذان المخططة والمبرقعة بأبشع الألوان. درست كل ألوان الطيف في فرعي الجامعي و تعرفت على كل ألوان الشوارد المعدنية ذات الألوان القاتمة ، ولم أكتشف بتجاربي التي أجريتها في المختبر ، مثل لونك القبيح هذا !

لا أريد منك جواباً !

ولا رداً !

اليوم كل الكلام لي!

تحملت كل ذلك، فأنا في خيبة !

وأي خيبة ؟

خيبتي أنا ؟

أم خيبتي بحزبي ؟

خيبتنا نحن ؟

بعد الأجتياح الإسرائيلي ، أصبح الحزب وردتـي ، اخترتـه وقـررت الالتـزام بصفوفه حالـة سياسـية شـدّتني، وشـدت مئـات الطـلاب والمثقفين، نشطنا بشغف، أصبح موئل أحلامنا ومستقبلنا ، كنـت أشـعر بتميز تلك الحالة السياسية، عن كل الأحزاب والقوى السياسية الأخرى الناشطة في الحقبة.

لكن أين يكمن العطب ؟

أصبحنا جميعاً هنا وراء القضبان !

هل كان ينقصنا النضج السياسي ؟

هل كانت كفاحيتا منقوصة ؟

ليست المشكلة فقط بالبرامج السياسية .

نحن في واقع متخلف، السلطة مازالت بدائية بوسائلها في محاربتهـا للمعارضة والخارجين عنها !

والمعارضة بكليتها ما زالت حتى يومنا تفتقد الرؤية السياسية كي تصبح معارضة فعّالة، فهي مازالت تدور في فلك السلطة، وفي أحسن حالاتها فهي تجريبية، كأن الشارع حقل تجارب، وللأسف تجارب فاشلة. كلنا قرأنا عن تجارب الشعوب وثوراتها ولكننا لم نمتثل دروس تلك الشعوب . احترفنا العمل السياسي ، ولكن فقط في إطار ترصيع قيادات نخبوية وشخصيات اعتلت الهرم ، تتخبط في تناقض شديد بين الممارسة والنظرية .

منذ العشرينات من القرن الماضي، بدأ تاريخ الأحزاب اليسارية، واليوم تتذكر تلك المعارضة شعار إحياء المجتمع المدني والأهلي؟ رغم صحة تلك الذكرى.

لكن هل المجتمع المدني ظاهرة جديدة ؟

أم أنه كان في عداد المنسيات عن ذهنية ما يعرف بقوى المعارضة؟

أم أنه موضة وتقليعة عملنا السياسي . ؟؟؟

لا يهمني كم لسعت من الضربات وكم مرة داس الضابط على صدري، كان يحز بسكينه على عنقي من طرفها غير الحاد، لم آبه بهذا التخويف، ففصيلي السياسي الذي كان خياري الأول عند التزامي السياسي، كان يعبئنا كي نكون مشروع شهادة، كنت قد تدربت في معسكر بحري على امتطاء الهو فر وهو يشبه الهوفر الذي امتطته الشهيدة دلال المغربي ، لم أخبر أحداً عن ذلك سوى رفيقتي منى

البحرانية، كنت قد اقتنعت بالعملية التي نفذتها تلك الفدائية ، عملت على تهيئة نفسي للالتحاق بمعسكر العمليات الفدائية وأخبرني أحد المسؤولين أن ذلك سيكون قريباً حضري نفسك . كان ذلك قبل الاجتياح الإسرائيلي للبنان بأسبوع ، شعرت أن ذلك الطموح أصبح على مقربة مني، وأكثرت من جلساتي وأحاديثي مع والدتي ، لأحظى برضى الوالدين، وقررت أن أتحدث مع أمي لأجس نبضها في حال تحقق طموحي، كانت والدتي تنجد لحافها، كانت وحدها، وكان أخوتي في مشاغلهم فرفصت بالقرب من أمي أراقبها، كان حدسها سريعا .

سألتني: ما بك ؟

ليس من عادتك أن تأتي مبكرة من جولاتك

و سألت: هل تريدين نقوداً ؟

هل تعانين من مرض ما ؟

أجبتها أود أن أساعدك بعملك . !

فقالت: لا أريد شيء ، أغلي فنجان قهوة ، لأفهم ما بك

سألتها: من هو أكثر واحد تحبينه منا ؟

ضحكت وقالت لي الأم لا تميّز بين أولادها ! كل واحد منكم له محبته ومعزته الخاصة، صحيح أنني ميزت بينكم، عندما نذرتُ لأخيك بذبح ضحية على مدرج الجامعة، لأنه أول صبي من العائلة

يلتحق بكلية الهندسة، كنتم خمس بنات قبله في الجامعة. تذكرت ذلك اليوم الذي قررت فيه أمي تلبية نذرها، عندما سجل أخي في كلية الهندسة، عزمت على أن أتغيب عن دوامي بالجامعة، وكم ترجيناها أنا وأخواتي أن لا تفعل ذلك ، فأصدقاؤنا سوف يعلقون ويضحكون من ذلك الفعل ، اقتنع والدي بحججنا و تدخل بفتوى تغيير المكان، واقترح على أمي تنفيذ النذر بمقر الجمعية الخيرية التي كان ينشط بها .

وأثناء حديثي معها قلت لها مازحة: انسيني ولا تحبيني عندك خمس بنات، انسِ السادسة ، فتوترت أمي من مزاحي، وطلبت تغيير الحديث.

سألت جداري :

هل أمي نسيتني ؟

هل أمي كانت تتوقع ما حل بي ؟

وهل ستنذر لي نذراً عندما أخرج من هنا .

كررت مطالبتي بنقلي من هنا ، طلبت عدة مرات السماح لي بمقابلة رئيس الفرع فجاءني مساعد جديد ، مستنكراً طلبي، إذ ليس من حقي طلب رئيس الفرع لأنه هو الذي يطلب وليس العكس ! وقال لي عندنا مائة ومائة مهمة نحن مشغولون بدورة الألعاب الأولمبية وكل الدولة مشغولة .

لكنهم على ما يبدو نسوا كل شيء عنا . نسوا هذا الابتكار البشري ، هذا السجن، إقصاء الحريات، تكريس اللاإنساني بالمطلق .

نسوا حياتنا ، ولم يبق إلا الموت، أيها الموت... تقدم، فلسنا نخافك خذ الشكل الذي تريد... فلن نموت رغم جبروتك.

مضى شهران وأنا بمجهول مطلق. وفجأة في ظلمة هذا الليل الأبله، قدم السجان المهووس، الذي تميز عن غيره بهوسه وانحرافه. كنت أتهرب من النظر إليه وأثبت نظري على بقعة من الأرض حتى لا أرى سلوكه! فعندما كنت في الفرع أولى أيام اعتقالي، لم يكن ينهال عليّ بعصاه التي لم تفارق يده، كان يقف إلى جانب جلادي يحدق بعينه المشتهية كنت أتخيل أنه سينبطح فوقي !..

طقطق الباب الحديدي الأسود، تحرر قفل زنزانتي، الوقت ليلي شديد السواد.

قادني إلى المبنى الثاني ، إلى غرفة النقيب الذي شاهدته أول يوم اعتقلت به. وفي أحد أركان زاوية هذه الغرفة ، كانت سهى فتفاجأت بوجودها !

لم يفرج عنها كما أخبرتني !.

ما السبب الذي أبقاها حتى هذا اليوم ؟

كانت قد أصبحت نحيلة وشاحبة، تأملتها طويلاً، تغيرت كثيراً، ملابسها، وصحتها ووجهها، ماذا فعلوا بها ؟

تجمدت عيوننا، وتجمدت عروقنا من جراء برودة تلك الليلة، كان لديّ كنزة في الكيس الذي أرسله الأهل، قدمتها لها في الحال لتحتمي من برودة الليل و من وحشة ذلك المكان، راقب الرقيب تصرفنا والغيظ يملأ وجهه، ووقف معترضاً بيننا، يبدو أنه لم يشبع ساد يته بعد ؟

مازال متعطشاً لإطفاء سجائره التي ألهبت جلودنا، و ألهبت نشوته ونزواته. والآن هل سيكرر تحقيقه معنا ليعرف ما سبب إعطائي الكنزة؟

ثم قال: أكيد أنكم تعرفون بعضكم ؟

ثم هزّ رأسه، وبلا مبالاة وبنشوة المنتصر قال سننقلكم إلى العاصمة ليتدبروا أمركم هناك في سجنكم الأبدي.

أخذونا إلى باحة الفرع، و من الطرف المقابل من بعيد، رأينا الشباب المعتقلين الذين سيرحَلون، كان عددهم ثمانية، وضعوا القيود بأيدينا، كل اثنين بقيد واحد.

صعدنا الباص بصعوبة كنت أنا وصديقتي نجر أجسادنا.

آه يا مدينة، كرهت حُبك، الكل فيك نائم، ونحن نودعك إلى مسير آخر .

إلى دمشق

كيف ستستقبلنا الفيحاء .... دمشق...

يا جلق...؟

يا مدينة التاريخ .. !!!

في الباص أحاط بنا من يسمون أنفسهم حماة الوطن ، كانوا بأسلحتهم وعتادهم ، رشاشات ومسدسات ، تزنروا بها كأنهم ذاهبون لتحرير فلسطين و الجولان .

وصلنا إلى استراحة الباصات في مدينة حمص، أنزلونا مثنى مثنى للذهاب إلى المرحاض، في الاستراحة كان الشاي الساخن، يرسل بخاره كان من المستحيل أن تنال جرعة منه، أقراص الفلافل في المصفاة تنتظر طالبيها، ونحن أول الطالبين ولكن لا سميع لمطالبنا ورغباتنا، وحين طلبنا من الدورية أن تسمح لنا بتناول شيء، أجابونا بأن هذا ممنوع، غير مسموح لكم، لسه بدكم تاكلوا ؟

وقال عنصر آخر من الدورية : بازدراء متوعداً ؟

أي حركة سنرشكم جميعاً...

ولماذا كل هذه الوحشية ؟ ماذا سنفعل نحن الراقدين على المقاعد، لا حركة ولا نفس ولا إشارة تصدر منا .

فرع الفقدان والولادة

من حلب إلى دمشق ست ساعات من العذاب، وصلنا وكم كان الوصول شقياً.

دمشق يا جُلق، كنت أزورك لحضور ندوة أو مسرحية أو حفلة شعر، وها نحن قادمون إليك الآن مع قيودنا، لا خيار لنا.

ليس أمامنا سوى الفرع ننتظر دخول بواباته .

أوصلنا الباص إلى آخر فسحة يستطيع الولوج إليها داخل الفرع، لم يتبق عليه سوى عبور الممرات ، التي لاحت لأعيننا عابسة مكفهرة.

على الفور وقبل نزولنا من الباص تقاضى العناصر أجر المهمة! صعد محاسب الفرع إلى الباص وسلم الأوراق النقدية لكل عنصر، تلك هي مهمة السفر، ويبدو أنها كانت متناسبة طرداً مع عدد رؤوسنا (التقبيض على الرأس) .

كان صباحنا حاراً لكثرة أصوات السياط التي كانت تصل لأسماعنا دون معرفة الأجساد التي تنهال عليها .

مجموعة من العناصر أحاطوا بنا، فكوا قيود أيدينا ووضعوا على أعيننا العصبات (الطرميشة)، وأداروا وجوهنا إلى الخلف،

فصارت ظهورنا لقمة سائغة للكماتهم وصفعاتهم المباغتـة علـى رقابنـا ولسعات سجائرهم في المكان الذي يختارونه .

كان لديهم كافة الصلاحيات بالقتل والتعـذيب، بـدؤوا بأسـئلتهم، عـن أسمائنـا وأسمـاء أمهاتنـا، وزمـن اعتقالنـا، و حالاتنـا المرضـية سألونا الأسئلة التقليدية المعروفة، كنا نسمع أسئلة وأجوبة بعضنا، ولا أنسى التهكم الذي انصب على أحـد الشباب، عنـدما سئل عـن اسمـه، وعن اسم قريته، لم يكتفوا بتهذيد الشـاب، بـل طالـت الشـتائم القريـة وسكانها

بقولهم : "بليتونا" بالشيوعية قريتـك كلـها معارضـة ، سـندمرك وندمر القرية يلي أنت منها ؟

وتصاعدت حدة الشتائم عندما سئل الشاب:

ما هي علاقتك بزهرة ؟

أجابه الشاب هذه عمتي

فلعنوا وشتموا زهرة ، ولعنوا الشاب بمسبات فاحشة وبذيئة .

وبلهجة تهكم !

قالوا له روح وودع الشمس التي سنحرمك منهـا أنـت وعمتـك الـ .ش..

في الليل أعيد توزيعنا بدون عصبات . رغم التعب والنعاس والإرهاق، والعذابات المخيفة التي لا يعرفها سوى من يعانيها بسمات مختلسة كنا نوزعها على بعضنا كي تخفف مصابنا وتثلج قلوبنا بنظرة حنو.

نظرت إلى خالد وفضل ، نظرات كأنها وداع

من يدري !

متى، بعد عام .. بعد أعوام ..

من يدري !

إذا كنا سنرفع أنخاب بعضنا ؟

من يدري !

إذا كنا سنصافح بعضنا ذات يوم !!

افترقنا، قادوا الشباب إلى جهة مجهولة بالنسبة لنا، وأخذونا أنا وسهى إلى مكان يسمى المزدوجة .

المزدوجات

ساقنا مدير السجن إلى المزدوجة، ومد رأسه إلى الداخل وتوعد بالعقاب لأي صوت يسمع خارجا ؟ ولملم أقفاله ومضى .

أما المزدوجة فهي أربعة منفردات متقابلة داخل غرفة مغلقة بباب حديدي و لكل منفردة باب حديدي يعلوه طاقة، مساحة المنفردة ٢/٢ متر وارتفاعها أقل من مترين وهناك سقيفة تفصل بين سطح المنفردات وسطح الغرفة ، وفي أعلى باب الغرفة توجد نافذة مستطيلة مُشبكة عرضها سنتمترات وطولها نصف متر تطل على ممر داخلي للسجن حيث تصطف أبواب المهاجع والمزدوجات الأخرى. كان لهذه النافذة وظيفة إدخال الهواء الراجع من زفير الغرف المقابلة. وفيما بعد أصبحت الحمام الزاجل بيننا وبين المزدوجة المقابلة.

استقبلتنا امرأة مسنة وبنت شابة لا يتجاوز عمرها ستة عشر عاماً، تسمرنا في مكاننا و لم نجرؤ على القيام بخطوة واحدة، أجهشنا بالبكاء مباشرة أنا وسهى .

لا ندري ما السبب .

سألتني همساً :

لماذا تبكين ؟

قلت لها لا أعرف

وسألتها: وأنت لماذا تبكين ؟

أجابت كنت أتوقع لقاء هند و حسيبة، الرفيقات اللواتي سمعنا باعتقالهن قبلنا .

وقفنا مثل غرباء دخلاء، لم نقو على القيام بخطوة تالية .

فقالت المرأة المسنة: ادخلوا " كلنا بالهوى سوى "

ادخلوا و شوفوا عيشتنا والله كلابهم ما بتعيش ها لعيشة؟

والله المجرمين ويلي قاتلين القتلى ما بشوفوا يلي نحن فيه .

دعتنا البنت الشابة سمر " القاصر " إلى شرب الشاي ! كانت موافقتنا سريعة وجلسنا بالقرب من باب منفردتهن وقدمت لنا قطر ميزا صغيراً بلاستيكياً .

وقالت تفضلوا ! لم يبد الذي قدمته شاياً! ماء أصفر !

فقالت هذا شاي بارد ، وهو المتبقي من الفطور .

سألتها : هل يمكن تسخينه ؟

أجابت : هذا كان يحصل ببيت أبوك !

بكرة تتعرفوا على حياتنا هنا .

ثم قالت مطبخنا هو الكار " كاس بلاستيك " صالح لكل الاستعمالات، للشاي والشوربة ، يحضرون لنا البرغل بالقصعات،

والشاي والشوربة بالتنك ، والملاعق ليس لها أثر هنا ،

انقطع الحديث عندما أطلت اثنتان من البنات من المنفردات التي لم نكتشفها في البداية وسمعنا صوتاً خافتاً لبنت أخرى لم نر وجهها كانت تطلب ماءً ، بدا لنا أن هؤلاء كن يخرجن من داخل الحيطان،أية حالة قهرية، لا مناص من أننا سنعيشها معهم ؟

جلسنا القرفصاء ، وعرفتنا أم عصام أولاً على نفسها كانت أكبرهن سناً ، ثم عرفتنا على باقي النزيلات .

سمر التي أحضرت لنا الشاي. اعتقلت هي ووالدتها، إنهن من مخيمات لبنا ن "عين الحلوة" كن يعملن في مستودعات صامد وهي مؤسسة تابعة لفتح أبو عمار وتهمتهن هي الانتماء إلى هذا الفصيل، أخبرتنا سمر أنها اعتقلت مع والدتها المرضع و أخيها الرضيع، ثم لم تعرف شيئاً عنهم و هي تتوقع أن يكونوا قد أفرج عنهم .

أما أم عصام فهي من مخيم عين الحلوة اعتقلت هي و أولادها الشباب الثلاثة، و عذبوا أمام عينيها .. كانت تهذي بسبب مشاهد الشبح والفسخ التي مورست في تعذيبهم ، ولظنها بأنها ستخفف التعذيب عن أبنائها، اعترفت عن أشياء صارت معها، وأشياء لم تسمع عنها، عن كل ما سئلت عنه، إلى درجة أن المحققين قالوا لها كفى؟

كفرت بالسجن وكفرت بالمقاومة. وهي تعيش الآن حالة من اللامبالاة، لا تعرف حدوداً !.

نهيدة ومنيرة من مخيم برج البراجنة من بيروت، لهما أيضاً نفس التهمة "عرفاتيات" كان يبدو عليهن أنهن قد تأقلمن مع هذا الوضع .

أما صاحبة الصوت فهي من مخيم بمدينة صور اللبنانية، وقد عزلت في السقيفة بسبب أصابتها بمرض جلدي معدِ.

تعرفت السجينات على أسمائنا ومناطقنا، ولم نرو لهن تفاصيل قصتنا ، فالتحقيق معنا لم ينته بعد. إضافة لحسابات أخرى، فالثقة لم تولد بعد بيننا، لم يكن في نيتنا نسج أي علاقة معهن، كنا نبحث عن رفيقاتنا اللواتي وصلن قبلنا إلى هنا.

همست بأذن سهى وقلت لها لندخل منزل الأموات و لنختر منزلنا، وقفنا نتأمل ونكتشف المعالم. وإذا بأصوات مختلطة تشبه ضجيج أصوات طلبة المدارس عند خروجهم إلى الفرصة. صمتنا وصمت الجميع هنا، لنستمع إلى الأصوات، وسارعت أم عصام لتخبرنا بأن هذه أصوات البنات من المزدوجة المقابلة، هؤلاء شيوعيات!

كان عددهن أكثر من عشرة، تكلمن معنا من نافذة السقيفة بعد أن تسلقن إليها.

تغير مخططنا بسرعة ، نحن الاثنتين توجهت أنظارنا إلى السقيفة، وعزمنا أن يكون مكاننا هناك في السقيفة،لأنها تطل على

مزدوجة الرفيقات.

اشتياقنا للرفيقات حدد خيارنا باختيار مكاننا دون الاكتراث بحالة العزل التي سمعنا عنها.لاعتقادنا بأننا وصلنا إلى ما كنا نبحث عنه، فرفيقاتنا الآن هن جاراتنا بالقرب منّا وسنتعرف عليهن، تسلقنا السقيفة التي لم يزد ارتفاعها عن متر.

وجلسنا ننتظر موعداً دون ميعاد، لا نسمع إلا قليلا من أصواتهن غير الواضحة ، لضيق مكانهن وكثرة عددهن كنا نسمع ضجيج أصوات ، لم تفارق عيوننا شبك النافذة حيث سيتحقق ذلك اللقاء المرتقب .

لكن اضطرابنا كان شديداً خشية من عيون أم عصام، كان علينا أن نتحفظ على كل شيء معها .

اخترنا السقيفة موطناً لنا، سهرنا الليالي معاً أنا وسهى، رحلات طويلة من الأحاديث، تحدثنا عن كل شيء، أحاديثنا لامست أضلاعنا وحنايا قلوبنا، حدثتني عن علاقتها العاطفية وأنها فقدت ثقتها بذاك المحب، الذي اعترف بتفاصيل العلاقة أمام المحقق، وهو ما أخجلها أثناء مواجهتها المحقق ، و اعترف أيضاً عن اسمها الحركي للمحقق بعد مصادرة الأرشيف من أحد بيوت الشباب الذين اعتقلوا في فترة اعتقالها !

قالت : أنه لم يترك أي شيء لنا ، لحبنا ولعلاقتنا .

كانت تتحدث والندم يرشح من حديثها بسبب ما آلت إليه علاقتهما. وقالت: إني أتوقع وجود علاقة له مع صبية أخرى ! إنها إحدى صديقاتي ! وذكرت لي اسمها ! وهي تريد أن تتأكد إن كانت تلك الصبية تعبث بعلاقاتها العاطفية ، وقالت على الرغم من ذلك فأنا لم أكرهه .

حدثتها عن صداقتي مع محمد، كانت تختلف عن طبيعة علاقتها، فهي ما نزال في طور التقارب، كانت أحاديثنا نظرية ! كنا نريد من خلالها رسم صورة للبنت الأمثل وللحب القادم، وللوطن الذي أتعبنا ولم نصل له. أخبرتها أيضاً بأن كل ما تحدثنا عنه مع بعضنا أنا ومحمد ذهب هباء، لأني لم أعد أرى ذلك الوميض بعينيه، ولم أعد أجد ذلك الاندفاع بصدره، بعد عودته من لبنان.

تحدثنا أنا وسهى عن اعتقالنا وعن مصير الحزب بعد حملة الاعتقالات هذه، كان حديثنا أشبه بنقد للتجربة، ثم تطرقنا إلى إمكانية الافراج، بل كنا على شبه يقين منه وأن اعتقالنا لن يدوم أكثر من شهور محدودة بعد اعتقال غالبية قيادة الحزب، وبسبب اعتقادنا أن حملة الاعتقالات هدفها إضعاف المعارضة فقط. لم يكن في حسباننا سجن دوما النسائي ولم نتوقع المحاكمات التي طالت جميع الشباب، وواحدةً فقط من البنات ، لسوء حظها فقد اعتقلت بعد الإفراج عنّا، ونفذ فيها قرار المحكمة.

كانت أحاديثنا تملأ يومياتنا في ذلك القبر الموحش .

كانت رفيقاتنا أمامنا وراء شبك النافذة كنا نلوح لهم صباحاً وعصراً ونهز رؤوسنا فرحاً ونرسل قبلاتنا بالهواء أولئك الرفيقات لم يسبق لنا رؤيتهن من قبل . ولكننا تشاركنا بتهمة الاعتقال ، وكان ذلك هو الدافع للتواصل معهن.

كانت أيامنا بالمزدوجة، أياماً قاسية، ولكن الإنسان يتعلم الصبر في السجن ، يتعود على احتمال كل شيء .

لم تتوثق علاقتنا بنزيلات مزدوجتنا، ولم تتولد الثقة، لاسيما أن الانتماءات الفكرية مختلفة، كان همّ السجن ووحشة لياليه هو الشيء الوحيد الذي يجمعنا؟

كل النخب السياسية لم تكن أي منها ديمقراطية ، كان هناك دعوات ومواعظ ديمقراطية، ولكن بدون ديمقراطيين .

والواقع أن المدارس السياسية في تلك المرحلة كانت في مجملها قوى عصبوية نخبوية. كل حالة سياسية تنعت نفسها بأنها البديل على الساحة، لا منطق للحوار ولا حيز للتلاقي بين تلك المجموعات، لم يكن هناك أي شكل من أشكال التشبيك بينهما، غاب عنها كلياً الفهم الديمقراطي والرأي الآخر.

كان الحزب الشيوعي السوفيتي يناضل من أجل ديكتاتورية البروليتاريا ولكنه سقط فيما بعد تحت ديكتاتورية الفرد ! فكيف

سيكون حال الأحـزاب " الشـيوعية التابعـة لـه" ! والـتي كرسـت عـادات وتقاليد الذكورية !

عبارات، شعارات شمولية وبـرامج ناريـة أسـرت كياننـا واسـتلبت ذواتنا، كان الخاص عند أغلبنا متلاشياً لدرجة الذوبان بالعام ، أصـبحنا شهداء عقيدة ونحن أحياء .

نضال سري قسري زاد الطـين بلـه بسـلبياته الـتي غيبـت المناضـلين الحقيقيين، وسرى مبدأ التعيين والتنصيب، متجاوزين حقاً أساسياً، هـو مبدأ الانتخاب والترشيح، أسئلة كثيرة كانـت تثـار، مـن هـم الأشـخاص الذين يقودون الحزب ؟ ما هي مواصفاتهم ؟ هل صـاروا قيـاديين عـن جدارة ؟ ولضـرورات أمنيـة كـان الموضـوع يطـوى ويلـف . وتعممـت مصطلحات، كفاحي ... ديناميكي ... الخ . ولكن ما هي ضـوابط هـذه المصطلحات ؟ وأولئك الذين كـانوا ينطقـون بهـذه المصـطلحات هـل كانوا كذلك ؟

الرفيق الذي انهار وتسبب باعتقـال معظـم الرفـاق والرفيقـات كـان يعتبر قبل اعتقاله نجم الحزب، كان يشغل هالة كـبيرة ضـمن الحـزب وقراراته ، وبعد ذلك لاقى ما لاقى ! وأصبح تقييمه أسفل السافلين! نال عقاباً شبه جماعي، من مقاطعة وعزل في سجنه كان مبالغاً فيـه، وقـد وصفه أحد الرفـاق الـذين جـاوروا سـجنه، عقابنـا لـه لم يختلـف عـن العقاب الذين طبق علينا من قبل السجان ! حمّلناه أكثـر ممـا يحتمـل ! وردة الفعل كانت قاسية بالغنا فيها .

بعد الإفراج عني، ذهبت إلى المحكمة ! كان موعد محاكمته مع بعض أصدقائي، امتنعت عن تحيته ، لم أمد يدي لمصافحته عندما حاول ذلك، ربما كان ذلك عقاباً وهروباً في آن معاً .

كان الفرع هنا محطة للمعتقلين القادمين من المحافظات بشتى التهم والمعتقلين القادمين من لبنان ومعتقلي المدينة نفسها، صار الزحام أشبه بيوم الحشر، مهاجع مكتظةً بالشباب، ومزدوجتين للبنات،ومنفردات لم نكن نعرف عنها شيئا ،كتل كبيرة من اللحم كدست وراء تلك الجدران، و في الليل كان اختلاط أصوات الشخير والزفير يتعالى من كل هؤلاء الموقوفين المتهمين .

وكل ذلك رغم بساطة المبدأ الذي يقول أن المتهم بريء حتى تثبت إدانته.

تدهور وضعي الصحي، غزاني اللون الأصفر حتى طال بؤبؤ عيني، لفت وضعي نظر سجاني، ونقلوا الخبر إلى مسؤولهم .

نقلوني إلى المشفى ورافقتني دورية كاملة الأوصاف بالبوار يد، أما أنا فأوصافي نحول واصفرار.

في عيادة المشفى أحدثوا ضجة مزعجة كانوا كعادتهم يريدون استنفار القاصي والداني لا حرمة عندهم لأي مكان ، مما دعا الطبيب إلى أن يخرج عن طوره ، وانهال عليهم بالانتقاد والتعليق: " كلها قد اللقمة" ! ولا يسعها الهرب منكم !

طلب منهم الابتعاد عن طاولة الفحص، ولكن رئيس الدورية أصر على بقائه وهمس بإذن الطبيب كلمة ! إلا أن الطبيب أجابه بصوت عال.. وما هي تهمتها ؟ لم انتظر جوابه ! اعتبرت أن الجواب يخصني، فأجبته بسرعة عن الأشياء التي وددت توصليها إليه، بما في ذلك مهنتي ودراستي .

ولم يتحفظ الطبيب في رده فقال لهم :

لو كانت أجنبية وبهذا الاختصاص فكم من الدولارات سيصرف لها؟

أجرى الطبيب لي فحوصاً مخبريه شاملة وصورة للصدر، ولكن نتيجة فحص الخضاب لم ترض طبيبي. أقلقتني نظراته؟ زودني بالأدوية والفيتامين ، وسلّم رئيس الدورية تقريراً عن حالتي، وطلب إحضاري إلى المشفى ثانية، لأنني بحاجة إلى نقل دم ولم ينس الطبيب طمأنتي بمتابعته لعلاجي .

عند عودتي من المشفى شعرت بوحدة سهى، وجدتها بالقرب من الباب، ولكن أحاديثنا السريعة أنستها وحشتها أثناء غيابي، قصصت عليها ما جرى معي بالتفصيل، وذكرت لها نبل ذلك الحكيم ! .

في المرة الأخيرة زرت المشفى بناء على طلبه، وتكلم معي بجدية عن حالتي الصحية وطلب مني متابعة علاجي عندما يفرج عني،

نظرت إليه باستغراب ! فهز رأسه وقال سيفرج عنك قريباً ، وقد أخبرت رئيس الفرع بخصوص وضعك الصحي وضرورة الافراج الفوري؟

لم أجرؤ على أن أحدث سهى بما دار بيني وبين الطبيب بعد عودتي مباشرة، أجلت ذلك إلى حين موعدنا مع السقيفة والليل .

ليس من السهل أن تكون النهاية هكذا ! ثمة اختلاط وتناقض في المشاعر كانت الأحاسيس التي اعترتني متناقضة، فعيني على صحتي والإفراج عني، و قلبي كان على صديقتي في هذا المنفى الذي لم نعرف نهايته .

مضى أكثر من عشرة أيام، لم أعد فيها إلى المشفى، فاعتبرت أن ما سمعته ، كلام نهار يمحوه الليل .

في ذات صباح باكر على غير العادة ، وصلتنا تنكة الشاي وقصعة الزيتون ، فأيقظت العيون النائمة المتعبة، لتناول رشفة من الشاي نتشوق إليها علّها تحتفظ بشيء من السخونة .

كان جفاف حلوقنا جميعاً وراء ذلك الشوّق ، جلست مع سهى خلف الباب في الممر الواصل إلى منفردة أم عصام نرتشف الشاي المبرّد ، ساد بيننا سكون محبب، نتأمل معاً الجدار المقابل لجلستنا، علنا نسمع صحوة رفيقاتنا ، امتد الصباح ، وهاهو ذا مدير السجن يقوم بجولته المعتادة على المها جع والمزدوجة ليسجل قائمة

التواصي وطلبات من يود شراء لوازمه من الخارج.تسنى لنا أن سجلنا ثلاث مرات حلاوة وأدوية وفوط نسائية.

عزمنا هذه المرة على معرفة ما تبقى معنا من نقود لنسجل طلباً، كان يلزمنا الكثير من الأشياء ولكن النقود تتسرب هنا كالهواء، فالأسعار سياحية، وشراهة مدير السجن لا حدود لها . على الرغم من أن غالبية المعتقلين هنا ممنوعون من زيارة الأهل ولا نقود لديهم للشراء.

قبل وصوله إلى مزدوجتنا استدعيت من قبل عنصر من عناصر السجن بطريقة تثير الشك من جراء ذلك الاستدعاء، فوضع الطرميشة على عيني، لم استبشر خيراً بهذا السلوك تحقيق جديد ! أو ربما معلومة جديدة حولي ! .

في الغرفة طلب مني الجلوس القرفصاء، وانهالت عليّ الأسئلة، ثلاثة أصوات كانت تتناوب في طرح الأسئلة، سئمت هذه الأسئلة وتكرارها فكانت أجوبتي في غاية الاختصار وبعضها .. نعم أو لا .

احتدت أجوبتي عندما أخذت الأسئلة تدور حول تهم باطلة لا يمكن تصديقها ! أخذ المحقق يشّهر بأخلاقياتنا ، كقوله اخترتم أوكار التخفي لتمارسوا الإباحية ، كان يصر على أقواله بأنني اعتقلت من منزل تخفي، كذبته! وقلت له إنكم اعتقلتموني من بيتنا من بين أهلي وأخوتي، وأنكم لم تعتقلونا لتهم أخلاقية! نحن هنا بتهمة الانتماء إلى حزب سياسي معارض! ولي هدفان بالحياة لا ثالث !

حلمي بالتحصيل العلمي العالي كما وعدت لوالدي، والعمل من أجل قضيتي وفلسطينيتي ؟ حتى أنني لم أفكر بالزواج كمثل غيري من البنات !

رد علي بجواب يدل على أنه قد أفلس في اتهاماته، قائلاً بدك تعملي معارضة علينا ووزنك لا يتجاوز ثلاثين كغ، روحي أشبعي أكل ولحم !

كنت واقفة أمامه وقد ثبت بنطالي بيدي ! أصبح واسعاً.

أجبته: إن حالتي تردت عندكم !

لا عمل لهؤلاء إلا الإساءة لكرامة الإنسان بشكل عام، والأنثى بشكل خاص،دأبهم الابتزاز، والتجني خاصتهم، إنه الإفلاس بعينه، عملهم الذي يقضون به ساعات !

انتهت استجواباتي، وأمرني أحدهم برفع الطرميشة، وطلب مني الاستدارة إلى الخلف !.

فجعت عندما رأيت والدي جالساً، ودموعه تترقرق على خديه دون أن تنهمر! ما أصغرهم ! ما ذنب آبائنا ! فأنا لم أعد قاصرة، أصبحت بعمر يؤهلني بحمل مسؤولية ما أختاره، إنهم يضغطون على أهالينا ليوظفوهم كمخبرين علينا ! وطريقة ليشوهونا أمامهم .

ركضت نحو والدي أقبله، و أضمه بقلبي وبعيوني، ضغط هو على يدي ليشعرني بمعزتي الخالصة في قلبه.

قلت لوالدي بصوت عـال ،بـل كـان صـراخاً ، أنـا تربيتـك يـا أبـو محمود، لم أعبث أبداً بثقتك ًالتي منحتني إياها.

كنت دائمـا معـي في وجعـي، وفي قـوتي، وفي ضـعفي ، وفي كـل حالاتي ..أنت وحدك ..

تخطـرت أمـامهم وكلـي إبـاء ، والـدي سمـع استجوابي ، وأنـا معصوبة العينين لم أكن على علم بوجوده إلا بعد زحزحة العصبة عـن عيوني، هـذا هـو بطلـي الـداخلي يسـمع أقـوالي و ليـذهبوا هـم إلى الجحيم .

أخذنا أحد العناصر إلى مدير السجن ، لأوقع علـى أن لا أمانـات لي عندهم؟

أدركت أن موضوع الافراج قيد التحقيق . وعرفت أنهـم أرسـلوا إلى والدي لاسـتلامي كـان عليـه أن يوقـع علـى تقريـرهم علـى النحـو التالي:

استلمت ابنتي بكامل قواها العقلية والصحية ! .

خرجت بغتة ولم يتسنّ لي وداع سهى ولكن سهرتنا كانـت هـي اللقاء والوداع .

تشـابكت يـدي بيـد والـدي. وتجاوزنـا حديقـة الفـرع ، ثـم كـوة الاستعلامات الخارجية ، وقبل الوصـول إلى الشـارع الخـارجي، نبهـت

والدي وقلت له هل تعلم بأن تحت هذه الأرض التي نمشي عليها سراديب معلبة. تحملت الوصول إلى حلب بصعوبة بالغة .

أربعة شهور مضت ، تجريد وحرمان من دورة الحياة في تلك الأقبية، لا حركة ولا نوم ولا طعام ولا ملابس ، ولا حتى هواء للتنفس!

إنه الجحيم لامسته و عشته وهو موجود في الواقع لا في الخيال...

قصة تاريخية

كـان جنـود قيصـر روسـيا يراقبـون العمـال خـلال الأعمـال الـتي يكلفونهم بها وفي نهاية يوم العمل، يقفـون بأرتـال ، لينـالوا مـن جنـود القيصر لسع السياط على ظهورهم .

كان كل عامل يمر أمام صف الجنود لينهالوا عليـه بالسـياط وقـد فاجأهم آخر عامل بالرتل

عندما أخرج من بـين أسـنانه عشـبة وقـدمها لآخـر جنـدي بالصـف قائلاً :

انظر إنني لم أعضض عليها بعد ؟

وعليّ أنا الحفاظ على عشبتي ؟

فمازال هناك أر تال من الجنود ينتظروني .

طلب والدي عودتي على وجه السرعة، كنت قد سافرت إلى مكان ذكرياتي القديمة للاستجمام ونسيان مـا لحـق بـي، إلى المنطقـة الـتي أخذني إليها والـدي لتشـجيع البنـات علـى متابعـة دراسـتهن، أمضـيت يومين هناك فقط ، لابد أن هناك أمراً عاجلاً يستدعي عودتي !

لم يمر سوى أيام على خروجي من السجن ، حتـى جـاءت دوريـة من دمشق " فرع الفقـدان والـولادة" لتبلـغ والـدي ضـرورة عـودتي إلى

دمشق لمراجعة هذا الفرع ؟

لم أكمل العلاج بعد ؟

كان الأهل بحيرة من ذلك الطلب ، قرر والدي الذهاب والسفر معي.

عشرة أيام لم تكن كافية لإيجاد تهمة جديدة ؟

أصر والدي على مرافقتي إلى الفرع ، ليعرف بنفسه سبب استدعائي؟

لم يتخيل على الاطلاق أن يطاله السجن أيضاً. وأن نكون جيراناً بالزنازين.

استقبلنا عنصر كل شيء في جسمه منفوخ ، منكباه، وأكتافه، وصدره.

لم يكن معنياً بقدومي أو استجوابي ؟

ولكنه تطوع بلكماته لي، استقبلني بالشتيمة والمسبات قائلاً :

أنت مثل الـ .. .. ولكمني على أسناني ومضى ؟

مضى أسبوع ووالدي يعاني من العذاب النفسي لحالتي، كنت ممددة أرضاً و جزمة الضابط تضغط على عنقي، يطلب مني الاعتراف بالمعلومات التي أخفيتها عنهم ، ويعنف والدي ويطلب منه أن ينصحني بالحديث ؟ وإلا ....

فأجابهم والدي شو بنتي الزعيمة الوحيدة، ما عندكم حدا غيرها؟؟

صرخت بوجههم ، وطلبت الافراج عن والدي أولاً ؟

وقلت : والدي ليس له علاقة بأي شيء، أنا كبرت واخترت طريقي ولم أعد قاصرة ! انهالت عليّ لكماتهم، على الوجه والجسد، فتشقق فمي وسال دم أسناني بلعته لأحافظ على مشاعر من أفديه بروحي، لم يضعفني وجوده ، بل زادني قوة وتحدياً لأثبت لوالدي الكثير من الأفكار التي كنت أطرحها أمامه في سهراتنا عن دور المرأة. رغم خوفي من انتكاس صحته.

آه يا والدي لم أكن أريد أن تدخل معي بوابا تهم،لكنك أبيت وقلت لي بأن واجبي يفرض علي أن لا أدعك وحدك ؟

كان والدي يتكلم بالأصول والأخلاق، ككل المربين لكنهم كانوا رجالاً فجرة ليس فيهم أثر من الخجل ولا يخالج ضمائرهم ذرة من الشعور الإنساني ، إنهم تجسيد للشر المطلق.

لم أنس مناظرهم في فرع مدينتي عندما كانوا يجلدون أنفسهم وقت استراحتهم من جلدنا، لم أعرف إذا كانوا هم يسيّرون العصا أم أن العصا هي التي تسيّرهم !! بل كان حملها متعة ولذة لهم !

حشرت مع والدي في زنزانة كفرصة أخيرة لأعترف لهم ؟

سألني والدي عن سبب هذه الإهانة التي أتعرض لها ؟

أجبته : هذا استعراض

يثبت ضعفهم هم ؟

يتجاسرون على جسدي المهلهل، ولكن لا تهتم يا أبي ؟

المهم عندي هو الافراج عنك أولاً !

وقف والدي يتأمل الجدران السوداء كـان يبـدو غاضـباً ، فقطعـت صمته وسألته :

هل تشبه هذه الغرفة ، غرفة جحر الفئران التي كنتم تخيفـون بهـا الطلاب الكسالى ؟

أجـابني يـا ليتـك كنـت كسـلانة، عرفتـك أكثـر بنـاتي بالجـد والاجتهاد، وأكثر من كل الطـلاب الـذين درستهم بحيـاتي ،هـذا الـذي نحن فيه واقع حقيقي ! ولكن جحر الفئران كذبة مخترعة .

كررت وقلـت لـه مازحـة ، شـو رأيـك " يـابو محمـود " أن تطلـب سيجارة منهم؟

لا أنسى لطف ابتسامته .

كنت مدخنة ولم يصدف أن دخنت مرة أمامـه، رغـم معرفتـه بهـذه العادة لدي، استسمحته قبل طلبي وقلت لـه احترامـك شـيء لا يمكـن أن أفرط به.

أضحكه طلبي ، وقال نحن بشيء وأنـت بشـيء وكيـف ستدخنين في هذا المكان الضّيق ؟

أنسانا حوارنا مكان وجودنا ، والسبب الذي جمعنا فيه ؟

ليلاً كان موعد عودة التحقيق معي، سحبت من الزنزانة ، والتفتّ إلى والدي دون أن أنبس بأي كلمة!.

خوفي عليه وعلى صحته منعني أن أتكئ على كتفه ، و صدره لأنعم بقليل من عطفه، وليمسح بيده على شعري كما عودني عندما كنت أخبره على نتائج امتحاناتي، كنت أتمنى أن أدخل رأسي في جوف صدره ليحميني من رؤيتهم، أعرف أنه يتسع لي ويتسع لخوفي ، كنت أتمنى أن أبكي قليلاً على صدره فربما يريحني ذلك قليلاً .

لقد حرمني وجوده أيضاً، من التحدث والصراخ ثانية بوجه جدران زنزاتني ، حيث تعودت على ذلك عندما كنت في السجن الخربة، كي أعاتب صديقتي نهاد التي سببت لي هذه العودة ثانية إلى هنا، بعد أن نجوت منها ، لقد التقطوا رسالتها التي نقلت أخباري للحزب .

أصروا على معرفة المعلومات التي أخفيتها عنهم ، وأن أصحح لهم الأشياء التي كذبت بها في التحقيق.

سألت نفسي ما هي ضالتهم ؟

شراستهم لن تجبرني على إفادتهم بجديد .

قبل أربعة شهور حبست في مدينتين. و عشرة أيام فقط استرحت من رؤية عددهم ومعداتهم.

وهم الآن يعودون؟

ليس لديّ جديد؟

لا شيء جديد سوى نيتهم في اعتقالي ثانية؟.

حجزت في غرفة توقيف ، ولم أعرف عن مصير والدي شيئاً، تمنيت سماع أي خبر عن رفيقاتي و عن صديقتي سهى، رفيقاتي القريبات البعيدات عني، كان يفصلني عنهم بضع خطوات، رغم كثرة المرات التي ذهبت بها إلى المرحاض .

احتفل الفرع وعناصره بالحركة التصحيحية وابتهجوا بالطعام الفاخر والبقلاوة والسهرات العامرة.

و نقلت أنا ثانية إلى فرع حلب بعد قضاء أسبوعين هنا .

قبل خروجي من الفرع سألت عن والدي بشكل صريح فقال لي رئيس الفرع والدك في بيته منذ أيام أفرحني ذلك على الرغم من أنهم مخادعون لا يمكن تصديقهم ؟

نقلت إلى فرع حلب من جديد بواسطة سيارة زيل.عند الفجر جرني عنصران إلى الباب ، كانت سيارة زيل مع السائق بالانتظار، كانت وجوههم لا وصف لها، الوقت بزوغ، والوجوه قميئة، تنسيك حليب أمك ، لم أعرف الوجهة. ولم أتوقع أنها جهزت لنقلي.

قلت هذه السيارة تستخدم لنقل المجندين الفارين ! ونقل قطع الأثاث البالية من القطعات العسكرية .

تساءلت : أي واحدة من تلك الصفات تنطبق عليّ ؟

حتى أنقل بهذه السيارة !! .

حشر العنصران على المقعد الوحيد ، وضغطت أنا في الفراغ الموجود وراء عصا الغيار ، وتفنن السائق بلكمي عند كل غيار، كانت اللكمة تختلف حسب حركة غياره، صرت أراقب حركة يده لأخفف الضربات التي كانت تنعر كتفي وجبهتي وذقني، ولكن لم أستطع أن أحمي نفسي عندما ينزل الغيار من الثالث إلى الرابع، عندما تصبح يده شبه حرة عن هذا العامود الخازوق.

العنصران الآخران، أثارا لديّ خوفاً من نوع آخر، بعد وصولنا إلى جسر الرستن ترجلا من السيارة وأدارا وجهيهما إليّ وهما يتبولان ! كانوا يتكلمون كلمات تدل على مدى كبتهم .

عودة إلى الفرع في حلب

اكتمل الفصل الأول من الاعتقال. وبدا لي بعد وصولي إلى هنا، أنه ما زال في المشوار بقية، استقبلني عنصر له شفة مشقوقة، أشقر بل أصفر الوجه، و بشكل لا إرادي خفضت نظري ، حتى أمنع عني وطأة الكوابيس الليلية.

قال بصوت رفيع تعرفين مكانك ؟

عرفت أن الاعتقالات مازالت شغالة ، لا يكلون ولا يملّون. الفرع في حالة من الاستنفار التام لكافة العناصر والرتب العسكرية، أعداد غفيرة من المعتقلين في بهو الفرع عرفت ما يدور هناك بعد أن أضيف إلى منفردتي طالبتان جامعيتان ، تم اعتقالهما لأنهما ذهبتا إلى الكلية التي يعقد فيها المؤتمر السنوي للكلية .

أرادوا من اعتقالهما ؟ معرفة الجهة التي أرسلتهما ، وما هي الخلفية وراء حضورهما ذلك المؤتمر ؟

قضتا أسبوعا معي ثم أفرج عنهما، وعيونهما دامعة عليّ .

لا أنسى سفيرة التي عادوا إلى اعتقالها مباشرة ، كنت لا أزال في الفرع ، تسربت أخبارها من مخبري الجامعة ، كانت تحدث أصدقاءها عني وعن سجني الذي أبكاها .

ليل ساكن، صمت يسود في الفرع، النوم سيد الكائنات ، النوم يطرد التعب و يطرد الكوابيس المرئية، يريحك من مشاهدة السجانين والجلادين والعصي والخيزران. استيقظت عندما فتح السجان الباب عليّ.

وبادرني السجان قائلاً :

مطلوبة لفوق ؟.

منتصف الليل !

ما الطارئ ؟

دخلت غرفة المحقق النقيب، كان يقف في الزاوية رجل نحيل، معصوب العينين، طاولة مرصوفة برزم نقود مختلفة الألوان والرسومات، وعدد من الرسائل

قدمها لي النقيب وأمرني بقراءتها .

نظرت إليها !

وقلت : لا أعرف إنكليزي

فقال : معيدة بالجامعة لا تعرفين إنكليزي ؟

قلت: أعرف كيمياء !

أجاب: تعرفي .. ط . ي .. ز ...ي !

ودفشني على الدرج لكنني تشبست بيدي على الدرابزين

وعدت لأكمل نومي وتنفسي .

قضيت شهرين شبه منسية تكرَ بي الساعات والليالي حفظت أسماء العناصر و السجانين وعرفت طباعهم ومناوبا تهم، وسهرات عربداتهم التي كنا نسمع أصواتها .

في مساء أحد الأيام كانت حركة العناصر غير عادية، تعالت أصواتهم، ينادون عملاء ، عملاء ! جهزوا لهم الزنازين، تغيرت أماكن السجناء القدامى ، أغلقوا طاقات الأبواب الحديدية، أعادوني إلى غرفة السجان ، الغرفة القريبة من غرف التحقيق وغرف الضباط سمعت أصواتاً، ولم أميز طبيعة الأصوات ! أصوات صخب وضجيج، صراخ القادمين يملأ الممرات ، أبو بيبو السجان التقطني من يدي . وبدأ بفتح الزنازين كانت أولها زنزانة صديقتي ورفيقتي نهاد، كنت قد تعرفت عليها خلال أول اعتقال .

لم يسألني إن كنت أعرفها أم لا ؟

كان الطلب غريباً بالنسبة لي ، طلب مني تفتيش جيبها، فترددت قليلا ونظرت إليها! فقالت مسرعة لا يوجد شيء، أحضرتمونا من بيوتنا، ومن غير المعقول أن نحمل شيئاً ؟

اطمأننت إلى جوابها ، كان المهم عندي أن تهمس لي بشيء ما واقتربت منها ومددت يدي في جيبها، و أخرجتها فارغة مباشرة كان عدد البنات ثمان بنات .

وبعد ذلك استدعيت إلى الطابق العلوي إلى غرفة التحقيق والاستجواب، فوجدت رفيقتي شهيدة، أوصلني أبو بيبو إلى منتصف الغرفة كانت نظرات التجاهل لبعضنا تعني الإنكار لكل شيء قد نسأل عنه.

صديقتي شهيدة! شهيدة قناعاتها، شهيدة أسرتها الصغيرة، التي تفتتت، زوجها سبقها إلى السجن، وبقيت صغيرتها عند الأقرباء .

في الصباح التالي امتلأت الغرف والزنازين وساحة الفرع بالمعتقلين الجدد، حتى يخال لمن ينظر إلى ذلك أن الجامعة بكل كلياتها قد اعتقلت. اللباس الجامعي كان اللباس الموّحد لكل المعتقلين.

نقلت إلى غرفة الحارس، وزّع القادمون الجدد وفق أسمائهم في الزنازين، كانت الأولوية لهم بالتعذيب والتعذيب لا حدود له.

من شقوق الباب المطل على الساحة ، شاهدت صبية أعرفها إنها أندلس، بل إنها الأندلس، مازالت تحافظ على بهائها، رغم عذاباتها . تذكرت مرحها وضحكتها، وحديثها عن ألمانيا وأسبانيا وفرنسا وهي البلدان التي زارتها مع والدها المنفي خارج الوطن. في لقاءاتنا كنا

نقلد الأوربيين ونردد الكلمات الإنكليزية بطريقتنا المحلية .. كان شكلها المميز ولباسها العصري ، يلفت انتباه كل من يراها.

كانت تجلس في الزاوية تتأوه من آلامها و من تشقق قدميها . تمنيت لو أن حماماً زاجلاً يذكرها بفنجان الكابتشينو الذي ارتشفناه ذات مرة في مقهى الفندق السياحي ، حين جاء النادل ليفهم طلبنا ، شكلها أوحى له بأنها من ألمانيا وشكلي بأنني فيتنامية ، وقف وبدأ يحدثنا بالإنكليزية ، لم نتراجع عن هذا المقلب ، وأكملنا ارتشاف فنجاننا ونحن نخبص بالكلام وخرجنا إلى الشارع وتابعنا المقلب حتى افترقنا ، ذكرى الأشياء الجميلة تجعلك تستهزئ من آلامك ومن فظاعتهم .

أصوات شهيدة تأتيك من كل فج ، معلنة جسارتها المطلقة ، متحدية بنظراتها وكيانها كل جلاديها . ولا أدري إن كانت بجسارتها تتحدى فراقها لابنتها الطفلة أم لأخبار زوجها الذي سبقها إلى المعتقل، وقد غيبه السجن ولذا كانت شهيدة هنا .

ملَّالجلادون من هواية الجلد ، وملَّ المحققون من الاستجواب ، حققوا مبتغاهم ، الفرع هرج ومرج ، سهر ومجون ليالي المسؤولين والعناصر .

ماذا يريدون بعد ؟

عجت الزنازين والمهاجع بأعداد غفيرة من المعتقلين . حشرونا في مهجع صغير خمس عشرة صبية ، رفيقات ومشاريع رفيقات وصديقات، رهائن عن الأخ أو الأخت .

يمامة صبية ، اعتقلت كرهينة بدلاً عن أختها التي لم يتمكنوا منها . لم تغرها السياسة بقدر ما كان يغريها حبها للموسيقى و الاستمتاع بمشاهدة رقص باليه ، ولكن حملة الإعتقال الهوجاء التي طالتها، فرضت عليها أن تصبح في خط المواجهة للدفاع عن أختها المتخفية التي اختارت قناعاتها، كانت يمامة مذهولة ليس بسبب اعتقالها، بل بسبب نصيحة المحقق لها بالاعتراف عن مكان تواجد أختها المتخفية، و سيفرج عنها مقابل اعترافها؟

صفعته بجوابها : عندما قالت له لو تبادلنا الأدوار .

هل تسلم أنت أختك ؟

فقال لها: بصراحة يللي بيتجّوز أمي فهو عمي ؟

لم تفد سنة الاعتقال التي قضتها يمامة ، رهينة عن أختها ، فقد تم اعتقال تلك الأخت بعد الإفراج عنّا ، كان حظها بالاعتقال سيء ، إذ كانت هي الصبية الوحيدة التي طبق عليها قرار محكمة أمن الدولة ، وحكم عليها ست سنوات سجن، قبعت كل تلك المدة في سجن دوما، إذ أنها كانت حاملاً في شهرها التاسع، ووضعت طفلتها في السجن، وأضيف إلى الأبراج الفلكية برجاً آخر اسمه " برج السجن "!!

وبمحض الصدفة، فقد أفرج عنّا بدون محاكمات ، البعض منّا قضى سنتين أو ثلاث، البنات اللواتي كن في سجن دوما قضين أربع سنوات، وبعضهن خمس سنوات بلا محاكمات .

لم نعرف كيف حددت تلك المدد الزمنية، وما هي الاعتبارات في ذلك ، لا شيء سوى فلسفة الغابة والذرائع والبطش !

أمضينا في هذا الفرع قرابة الشهر ، وسرعان ما تم التعايش بيننا، كأن غالبيتنا كانت على موعد مع السجن.

كانت الصديقة منى طالبة الهندسة ، من قرية تعج بالسياسة والسياسيين ، كانت كأنها قادمة للتو من القرية، مازالت تحتفظ بلهجتها، وببساطة القرية، لم تتأثر بعد بالمدينة التي جاءت إليها لإتمام دراستها الجامعية، كنا نقضي الوقت بالأغاني والدبكات، كانت تمسك على الأول بالدبكة مع قريبتها هالة التي اعتقلت في بيت منى، كنت أراقبهما ، كانت منى تنسيني مكاني لأسافر إلى تخوم صحراء قريتها، كنت أطلب منها أن تحدثني بلهجتها ، كانت تكرر ذلك عندما تشعر أن ضحكتي قد وهن صوتها. تبادلنا عناق الوداع عندما أفرج عنها هي و هالة مع العديد من الصديقات اللواتي اعتقلن لأسابيع .

شهيدة قريبة الصديقة منى، ومن نفس قريتها، كانت مدبرة الطعام في مهجعنا كانت تهندسه على طريقة شهادتها بالهندسة، الشهادة التي حملتها من جامعة دمشق ، كان ذلك عندما قصت كم

قميصها لتصفي ما تبقى من اللبن الذي كان يوزع علينا في الصباح ، مارست قرويتها في اختراع صناعة الألبان التي اشتهرت بها قريتها. ولم يكن يعكر صفو مزاجها إلا عندما كانت تتحدث مع نهاد بأمور السياسة والحزب ، وكذلك بسبب الحديث الذي كان يدور حول الأنانية وتضخم الذات الذي تفرزه جدران السجن ، كانت شهيدة توجه نقدها إلى نهاد، وتصفها بتلك الصفات ، وكانت تطلب مني أن أؤكد ملاحظاتها عن نهاد وكنت أتحفظ في ذلك لأني كنت أعتبر أنه مازال هناك متسع من الوقت لاكتشاف بواطن النفوس وخفاياها .

عائدة الطالبة بكلية الهندسة، قصة عائلتها مشابهة لقصة عائلتي، ولكن مع اختلاف المحطة التي ترجلوا عندها. عرفت بنشاطها الفعّال ضمن فصيل سياسي فلسطيني ، بالإضافة إلى ذلك شاركتني بالنشاط النسوي الأسبوعي الذي كنا نتمنى تطويره إلى مستوى صالون أدبي نسائي، يبحث بقضايا المرأة .

اعتقلت بسبب زيارتها لي بعد خروجي الأول، قدمت لتهنئني بالإفراج عني ولكن العيون الساهرة المراقبة تعقبتها لتكون نزيلة معي في هذا المهجع . اعتقلت بعد ست شهور من اعتقالي.

ذهولها استمر ست شهور إلى حين الافراج عنها، كانت تصرفاتها أفضل من كل المنشطات التي أثارت الضحك فينا، إضافة للوصلات الغنائية التي أجادتها وكنا كلنا آذان.

كانت أندلس في صباح أحد الأيام تراقب صمت الممر، فسمعت صوتاً مشابهاً لصوت صديقتها التي لم تعتقل وخشيت من قدومها إلى الفرع، طلبت من عائدة لكونها أقل تهمة من البعض أن تجد حجة للذهاب إلى غرفة الحارس لتضع جواربها على الحبل المثبت على نافذة الحارس واكتشاف أمر تلك الصبية، ودارت مجادلات مع الحارس للسماح لخروج عائدة و وافق على ذلك ، وخرجت عائدة وبالفعل كان هناك صبية في الغرفة ولكن ذهول عائدة لم يساعدها على معرفة سر تلك الصبية !

فقالت لها : كل شيء تمام ولا يهمك !

عادت عائدة فرحة مسرعة لإنجاز مهمتها ، انتشرت هستيريا الضحك لساعات عندما عرفنا أن تلك الصبية التي تكلمت عائدة معها كانت زائرة لأحد العناصر ضحكنا ، وتخوفنا من انفضاح خططنا، ولكن ذلك مضى بسلام .

في صباح كانوني جرى فرزنا، كنا ثماني بنات وشاباً اسمه موريس كانت آثار تعذيبه لم تندمل بعد .

رحلنا إلى دمشق، و أعتقد أنه قد أفرج عن المتبقين في الفرع .

في طريقنا إلى دمشق ، تذكرت كيف نقلت أنا و سهى في المرة السابقة، واعتراني الخوف من جديد فنقلته إلى صديقتي شهيدة التي كانت تقاسمني الكرسي .

وعند وصولنا إلى مدخل دمشق انفجرت تغني بحماس :

إني اخترتك يا وطني

سراً وعلانية

إني اخترتك يا وطني

حباً وطواعية

وارتفعت أصواتنا معها غير مباليات بتهديدات أبو بيبو، رئيس الدورية.

وصلنا الفرع ، كان الوقت ظهراً ، لم يستقبلنا الفرع بالطريقة التي وصفتها لصديقتي شهيدة ، أوصلنا المستقبلون من العناصر كعادتهم إلى غرفة توقيف ، بدت جميع الغرف والممرات كأنما قد وصلت إلى درجة الإشباع من شباب وبنات ، أُجهز على كل أعضاء الحزب ، و على مفاصل الحزب، الكل بات هنا ، قيادات ، مشاريع رفاق ، أوساط الحزب الاجتماعية لم يعد المحققون يأبهون بالتحقيق ، بلغوا الهدف بل أكثر منه لذلك كان مجيئنا تحصيل حاصل ، لم يهتموا بإعادة التحقيق ، مع نهاد وشهيدة قابلوهما فقط لأخذ أقوالهما .

ولكن الشيء الغريب عند المساء أن بعض العناصر حضروا وطلبوا منا الوقوف وإدارة ظهورنا إلى الحائط ، كان هناك على ما يبدو ضابط من مستوى رفيع ، جاء ليتعرف علينا ، ويلقي نظرة على بطولة عناصره، وأشير له بصوت مسموع إلى شهيدة !

وسألها أين زوجك ؟

فقالت : زوجي معتقل عندكم ، لماذا تنكروه !

فقال لها : زوجك لم يعتقل عندنا في هذا الفرع ، من المحتمل أنه معتقل في فرع آخر .

وقال صوت آخر لو رأيت زوجك ، من الصعب أن تتعرفي عليه ، أوصافه تغيرت ، وهو يلبس باروكة ! وعلى وجهه مكياج !!

لا أحد بيننا فسر ما حدث ، لم نكن نتوقع أن هذا الرفيق انضم إلى قافلة الشهداء .

سيقت نهاد و شهيدة إلى جهة ، وقادونا نحن الستة لننضم إلى مهجع رقم ستة .

مهجع رقم ٦

استقبلنا في هذا المهجع بحفاوة وترحيب، كان لقاءً حاراً جميلاً، توحدت الآلام والعذابات ، المجموع قوة . جلسنا على هيئة حلقة، جلسة تعارف حافلة بالتعليقات والضحكات، من الوهلة الأولى، نقلت انطباعي للرفيقات اللواتي كن يحجبن الأضواء بل عرفتهن يحببن ذلك.

الست الناظرة لـ... عزيزة ! عندما دخلنا المهجع ،كانت واقفة ويداها على خاصرتها تتأملنا واحدة واحدة، كأنها في باحة مدرسة أثناء الفرصة ، لكنها كانت بلا إيعاز ولا جرس لتنذر طالباتها .

آبلا حكمت لـ.. ربما استقبلتنا بالمواعظ والحكم، كأنها تتوقع خطيئة ما قد تبدر ممن كن قادمات . عرفتها فيما بعد كانت دقيقة بسلوكها، و كانت تصطنع الوقارالشخصي.

جرس ... لـ .. لانا كانت تصدر أصوات من أدنى حركة تقوم بها، حتى أثناء نومها لم تكف أسنانها عن الصرير ، ولم تعرف السكوت عن الكلام لحظة ! تدخلت بكل شاردة وواردة وكأنها "أب المهجع"، وهذا اكتشفته فيما بعد .

كل جديد حلو وله بهجة حتى ولو كان تعليقاً . كانت الفرحة كبيرة عندما أخرجت قداحة، كنت قد اختلست اثنتين من غرفة

الحارس، وخبأتهما بمخبئ سري في ثيابي حيث القداحات من الممنوعات هنا، وأعطيت الثانية إلى نهاد قبل وداعها.

حشرنا في مهج رقم(٦) أكثر الأماكن ازدحاماً نسبة إلى مساحته يضمّ رفيقات من دمشق وحمص وحماة، و كانت معنا أم عصام وبقية البنات العرفاتيات، بعد أن نقلن من مزدوجتهن مكانهن السابق حيث صادفتهم قبل شهور . لم تكن صديقتي سهى معهن كنت أتوقع وجودها في الفرع، كانت قد نقلت إلى سجن دوما مع مجموعة من الرفيقات.

بعد وصولنا بأيام أضيفت رفيقة جديدة هي وطفة كانت قادمة من مدينة حماة معتقلة حديثاً رهينة عن زوجها، وقد حصلت مناحة وقت دخولها المهجع، فقد تركت طفلتها الرضيعة التي لا يتجاوز عمرها الشهور، وهي مازالت تحتفظ لها بالحليب ليكون فيما بعد آلاماً إضافية لجسدها .

مساحة المهجع خمسة أمتار بأربعة في داخله غرفة ضيقة ارتفاعها أقل من متر بمثابة الحمام والمرحاض، استخدمنا سطحه كسقيفة ومخبأ للأحذية والتسالي التي اخترعتها كفا، اخترعت ذلك لتهرب من هواجسها التي كانت تلاحقها، خوفها من عقاب والدها بعد خروجها، بسبب الاعتقال، كان لمهنتها سبب باعتقالها عندما ذهبت لإعطاء قريبها المتخفي حقنة وريدية ، حيث اعتقلت في بيته، لم تكن على اطلاع لا بالمنشورات ولا بالسياسة، كانت تهمتها أنها تنكرت

للاسم الحقيقي لقريبها ، ظناً منها أن عدم البوح عن اسمه صموداً ، ولم يخففوا التعذيب عنها ، إلا عندما قابلها قريبها وطلب منها البوح باسمه الحقيقي، قضت مدة اعتقالها السنة بصمت وخوف .

الحمام المشترك مع المرحاض ، يعرفه السجين من وجود ماسورة المياه (٢,٥) أنش التي تستخدم كدوش للاستحمام ، ولكننا لم نكن نستخدمها كثيراً بسبب برودة وقوة ضغط الماء ، لم يكن ذلك محتملاً ، حتى أدى إلى حرمان الكثير من البنات من متعة الحمام والنظافة، فالغالبية منا ليست بحاجة إلى مثقب للرأس، يكفينا أوجاع الرأس التي حلت بنا ؟

رغم مواصفات الحمام السيئة ، و لكثرة عددنا حددنا نظاماً وأدواراً ، جعلنا في اليوم خمسة أدوار،كل اثنتين منا لهن دور ، في البداية لم أتقبل ذلك النظام ، لشدة خجلي من الاستحمام أمام شريكة ، كنا نقف وظهورنا لبعضنا ونرش قطرات من الماء على رؤوسنا ، حتى نتقبل برودة الماء التي لم تكن محتملة، كان ذلك يدوم دقائق، لم نستطع أيضاً الوقوف تحت الماسورة لشدة قوتها ، لم أبدل شريكتي في الاستحمام ، طوال فترة وجودي في هذا المهجع ، كنت أعلق و أقول يكفي الفرجة على واحدة !.

وصل عدد نزيلات المهجع إلى ٤٥ معتقلة . كان هناك شبه نظام يشرف عليه عدد من الرفيقات كقيادة للمهجع ، كان هناك قيادة

عينت نفسها قبل مجيئنا: عزيزة ، سلام ، ، ريما ، لانا ، كانت فيروز قيادة ظّل أيضاً ، ثم تم تعديل ذلك بعد مجيئنا .

اسم الشاويش الشائع في السجون ، بدلناه باسم "سيريلنكا" حيث تتناوب عليه جميع النزيلات ما عدا الحالات المرضية، تقوم السيريلنكا بدور الإشراف لمدة يوم كامل (من الصباح منذ دخول تنكة الشاي والفطور وقصعات الطعام وتنكة الشوربة والحديث مع السجان عندما يفتح الباب لأمر ما وحتى ميعاد النوم).

كانت كل سيريلنكا تجهد نفسها لإدخال برامج جديدة منوعة لإشاعة السرور في القلوب المتعبة ، سرد قصص، أفلام ، أو حكايات. تمتع البعض بحكاياتهن ، وأشبعن غرورهن بحب الظهور والسيطرة على من كن يعتبرنهن أقل مستوى ، وخاصة في سرد الحكايات التي كان لها طابع شخصي، كان هناك مبالغة بسرد النسب والحسب و مبالغة بالحديث عن مستوى معيشتهن، كان البعض يتغنى بعلاقتهن مع قيادة الحزب. ولكن سرد القصص العاطفية، كانت في غاية من التشويق والمداعبة، خيال، وأحلام، كان الرجل من النواقص الأساسية لنا جميعنا في تلك الأمكنة، ولكنه كان موضوعاً حاضراً في كل اللحظات .

وظهرت قوة العضلات عند ممن لم يكن لديهن شيء للمفاخرة به، لم يكن هناك مبرر ولم يفهم أحد سبب الصفعة التي انهالت من تفيدة على إحدى البنات المسكينات ، كانت المسكينة جالسة تتحدث مع

من كانت تجاورها، وإذ بصفعة لوت خدها ؟ وما كان من هذه المسكينة ، إلا أن وضعت يدها على خدها ! وكلها دهشة لهذه المباغتة.تصدى المجموع لموقف تفيدة، يبدو أنها كانت تعاني قهراً وجودياً في المهجع ، كانت نادمةً على تهمتها، التي اعتقلت بسببها، انتمائها للحزب فكانت تتنكر لكل ذكرياتها القديمة ، كانت تغرد خارج السرب ، وكان هذا يضعها في عزلة، وزادت عزلتها في المهجع ، عندما أضافت في اعترافاتها أن للحزب سياسة سادية وفاشية، وثارت ثائرتنا عند سماع تلك الاعترافات ، عُقدت جلسة جماعية طلبنا منها أن تسحب ذلك الاعتراف ، فرفضت هذا، استمر العزل والجفاء لها من بعض الرفيقات إلى يوم نقلت فيه إلى سجن دوما فيما بعد ، حيث تم نقل بعض الرفيقات ، بعد أن قضينا فترات مختلفة بين رفيقة وأخرى ، طبق قرار النقل على بعضنا ، و قدرنا ذلك بالقرارات المزاجية التي اتصفت به إدارة السجن .

أضيفت إلى سهراتنا مباريات الشعر، كان ذلك يجري بين اللواتي كن يحفظن الشعر، أظهرت حنان وحُسن تفوقاً بذلك ، كانت حُسن تتحفنا في المساء فكنا نستمع لها، إضافة إلى موهبة تعليمنا تراث الدبكات التقليدية في ديرتها، حُسن لم يخلصها سجنها من مفاهيم ديرتها التي كانت تحرّم السجاير على البنات، كانت تجادلنا ليل نهار، وقد شككت في قوة إرادتي بعد أن نقلنا إلى فرع التحقيق فيما بعد، عندما طلبت سيجارة من أحد عناصر فرع التحقيق ونحن في

فترة التنفس ، وزادت حدتها وغضبها من طلبي، عندما عرفت أن هذا العنصر من منطقتها ، ولابد أنه سينقل الخبر إلى ملّتها! لم تكن ترغب أن يعرف عنا بأننا مدخنات، لأن ذلك قد يسيء لسمعتها بالقرية! وقد تحملت خلافها معي، لأني تذكرت مقولة "ما بقاش إلا تدخني" ؟ .

مفاهيم وعادات مختلفة بين بيئة وأخرى ، كفا تخشى عقوبة والدها لأنها سجنت و حُسن تخشى من ديرتها إن شاع أمر تدخيننا ؟

حاولت ريما في يوم إشرافها كسيريلنكا تجديد شكل نهارنا، بعد درس الرياضة مباشرة فقدمت أندلس وتفيدة في فاصل راقص، رقصوا رقصة زوربا على أنغام قلبيهما، وساد سكون واستمتاع مع خيال زوربا. وحين أنهين وصلتهن تابعت فهدة رقصها على نغمة مرش الأخبا ر حيث كانت تدندن به، ومثلت تمثيلية غير مكتوبة ، كانت جزيل ترفع يدها كميكروفون ، وأجرت مقابلات معنا ، ولقبت كل واحدة بالشكل الذي ألهمته شخصية المتحاورة ، كان هناك لقاء مع فنانة الجماهير فهدة، سألتها كل الأسئلة التي تُسأل عنها الفنانات! مضى بهن الخيال، تصورن حتى لون الأصبغة المستعملة ، وكيف تختار الأزياء، والموديلات المفضلة .. الخ عمّ الضحك وحدث فاصل منشط مشهود لن ينسى . تسليات متنوعة ، مارسناها بشكل عفوي ، والبعض منها أحياناً لم يكن يثير حتى الضحك ولكننا كنا نفتح أفواهنا .

ولكن البرامج وتجديدها لم يغير إيقاع الحياة هنا الرتيب والثابت،الاستيقاظ صباحاً، تناول الفطور الهزيل، ترتيب المهجع والبطانيات،درس الرياضة من المدرّسة وطفة التي أصبحت مدرّسة الرياضة ، لأن مهجعنا لا يتسع لطولها وطول يديها فكان التمرين المتكرر هو حركة الرقبة ولوي الذراع ، حافظت على نوع مهنتها ، لم تغيّر مهنتهاالأصلية ، وهي هنا معلمة أيضاً . وقد أنهت اليوم الدرس قبل أن تكمل التمارين لأنها كانت السريلنكا ، كان الفرع يحتفل بذكرى الحركة التصحيحية، حيث تكرر لي للمرة الثانية إحيائها هنا ، وكانت العادة توزيع الحلوى على جميع السجناء ، انفتح الباب لاستلام حصتنا فوقفت وطفة قائلةً : إذا لم نتحلى فماذا يحصل لنا؟

فتعالت أصواتنا مجيبة لها ، سيعتقلوننا؟؟

عمل آخر في المهجع تقوم به وطفة ، كانت تقوم بجمع الرغوة التي كانت تطفو على سطح الشاي المعبأ بالتنك، زبد لا يشبه زبد البحر، بقايا رواسب المواد التي علقت بالتنك ، قبل أن تعبأ بالشاي المخصص لنا، إضافة إلى الأجنحة والأرجل لكائنات ضلت طريقها .

أدخلنا برنامج الحلقات الثقافية. كانت كل حلقة تضم واحدة من الرفيقات ، كنا نطرح بعض الموضوعات النظرية حول الحزب و تاريخه (كانت بعض المعتقلات لا يعرفن شيئاً عن ذلك)، كانت فهدة تتحدث في حلقة قريبة مني وقد سمعتها تناقش "البيان الشيوعي" وقد أذهلتني وهي تتحدث كأنها تلقيه غيباً عرفت قدرتها

على الحفظ بصماً . ولكن هذه التجربة لم تدم بسبب ضجر البنات، وتعليقات أم عصام الساخرة؟

فرضت المساحة الصغيرة قياساً لعددنا شكلاً للنوم، وهو ما يدعى التسييف، رأس ورجل، ومن يخرج عن نظام التسييف لعدم وجود أماكن شاغرة ، يضطر إلى السهر حتى الصباح. عرفنا بالسهيرات، كنا حوالي السبعة ، و يصل عددنا أحياناً إلى عشر بنات، كانت مهمتنا السهر وأحياناً إصلاح وضعية البنات المسيفات. غالباً ما تضل قدم ما عن مكانها فترفس رأساً يجاورها أو تلطم فماً قريباً، كنا نعيد هذه القدم ونشدها باستقامة إلى مكانها، كان هناك فصول مضحكة للسهيرات حين يسمعن أصوات الغازات المنطلقة التي تخرج بلا إذن!

كانت أحاديث السهيرات طويلة عميقة، و أحيانا سطحية،وأحيانا ثرثرة بكل ما يخطر على البال.كنا نتحدث ونوتوت كنت أنا و عتاب يومياً من فريق السهيرة، وكانت النائمات تتذمرن من أصوات وتوتتنا المعهودة وتدافع عنا فهدة وتؤكد أن أصواتنا لم تخرج من بلاعيمنا.

كانت عزيزة تنزعج دائماً من السهر، وقد تعودت النوم على الضوء الخافت والنوم بسريرها، لم تكن معتادة على ذلك الوضع ، ولم نكن نحن معتادات على نوم التسييف .

وفي أكثر الصباحات كانت توجه إلينا النقد ولكن لا مناص من السهر.

أما التدخين فكان سيجارة واحدة لكل مدخنة، كنا نتشارك في التدخين بنحو رباعي كل أربع يتشاركن بحصتهن من السيجارة ويكون بحوزتهن أربع سجاير، أما أوقات التدخين فيجب أن تتم بموافقة الشريكات ووفق الأوقات التي تلح فيها السيجارة . كنا نختار شريكة التدخين من اللواتي نعرف بأنهن غير مدخنات . وفي بعض الأحيان تحظى المدخنات الشديدات بسيجارة تتبرع بها إحدى المجموعات رأفة بالحال ، وكانت السهيرات يخبئن السيجارة الأخيرة للسهرة.

كان الاستيقاظ باكراً، تسابق فيروز صحوة السجانة وقرقعة الأقفال وتسافر مع صوتها يا جبل البـــــعيد ... صباح فيروزي عودتنا عليه، على غرار منبه . وجدانيات تنبشها رقة صوتها . عصراً كنت أنظر إليها ضاحكةً وأناديها بفيروز فترد مباشرةً "يا بو ضحك جنان".

في وسط هذا المجموع دفنت قلقي واضطرابي حتى لا أدع الغم يستولي عليّ . كان ذلك وضع الغالبية منّا، استسلمنا لفكرة كانت سلام ترددها، السجن حلو خمس سنوات، لا نريد أقل من ذلك ولا أكثر . وعلى نفس المنوال ، كانت سميرة تقول مهما كان الزمن ، علينا أن نعتبر أنفسنا هنا كما لو أننا في رحلة بحرية إلى قبرص، وسنعتبرها رحلة غير موفقة، تنغصنا بسبب رداءة الطقس وسوء الملاحة !

كم هو الفرق في الطموح، بين من يرتع في الخارج وبيننا ، هم يفكرون كيفية تحسين معيشتهم، أو النجاح في دراستهم، أو تجهيز أمور الزواج ! ونحن هنا لا شيء من ذلك ، فقط إحصاء الأيام التي

مضت ، وتوقع المدة التي ستأتي! كل ثانية كانت تمر علينا، كنا مجبرين على قضائها بل هي مفروضة علينا ، ولا نفع منها بشيء، وكان هذا يجعل الحياة قاسية.

تابعت فيروز فيروزياتها رغم الدولاب الذي كان يلحق بها من السجان أمام المهجع .

و في إحدى المرات أطل مدير السجن، ودخل إلى المهجع مصراً على معرفة صاحبة الصوت ، ولكنه لم يصل إلى هدفه ، فوقف داخل المهجع وأمر كل واحدة منا أن تمر أمام كبله، الذي كانت ضرباته تصدر إيقاعاً ، كانت كل واحدة منا تتلقى اللسعة على يديها ونتكوم على من سبقتنا في الزاوية ، كان يختلط صوت بكائنا وضحكنا، وعندما جاء دور سميرة لفت أكمامها على يديها، واستطاعت تخفيف ألم اللسعة عنها ، كنا نتلقى العقاب ونعود لنرتمي على هيئة كومة من اللحم .

فيروز المهندسة أم لطفلتين، شامية النشأة والتربية، أمضت ثلاث سنوات في المعتقل من غير تهمة ، تهمتها أنها تجرأت على رفع قضية وشكوى ضد الذين داهموا بيتها لاعتقال زوجها المتخفي، استغلوا وحدتها ونهبوا ما خف حمله وغلا ثمنه، تحملت بصعوبة بعدها عن طفلتها الرضيعة، والتي تركت عند والدة زوجها لتدبر شؤون تربيتها .

رضينا بالأمر الواقع، رضينا بالسجن، كان التذمر مدفوناً بالأعماق، ولم يفصح أحد عنه ، رغم ظهور حالة واحدة لم تتأقلم مع الوضع، مرضت واسترسلت بذلك حتى أشرفت على الانتحار الروحي، وهو عذاب أشد وأقسى من كل حالات الانتحار التقليدية.

لم يكن عدد الأمهات المعتقلات قليلاً ، لذا فرض على الجميع مراعاة مشاعرهن ، كان الحزن لا يفارق ملامحهن، تحملن سجنهن، ولم يتحملن بعد أطفالهن عنهن ، كن يمسحن دموعهن بصمت ، راعينا ذلك ، وأصبحت سلاماتنا بأسماء الأطفال. كم من هؤلاء الأطفال قد حرموا من أمهاتهم وآبائهم .

كان التنفس صعباً ، نسينا الشمس والقمر والهواء، انتشر بيننا الجرب والالتهابات الجلدية، فطلبوا جمع بطانيات المهجع لتعقيمها بالد. د.ت ، ثم جاء دور تعقيمنا بالشمس خرجنا صفا أحادياً متجاوزين المهاجع المصطفة على جانبيّ الممر، كنا نطرق على أبواب المهاجع لنصحي ساكنيها. خرجنا إلى الباحة ولأول مرة عرفنا إن للفرع باحة وحدائق ، نظرنا إلى وجوه بعضنا كانت الصدمة قاسية، لم نكن نشبه أنفسنا، تعرفنا على وجوهنا لأول مرة، ألوان العيون والشعر والبشرة لم تكن كما هي في المهجع، أما الأساور التي صنعناها من نوى الزيتون وخيوط البطانيات ، فقد صدمنا لبشاعة ألوانها الظاهرة، أقبح أنواع الألوان ، وقفنا بعجز أمام أشعة الشمس كأننا تجمدنا، و شعرنا بالقهر من بشاعة الأساور التي كنا نلبسها. فرطنا

حبات الأساور التي كانت سلوتنا المحببة داخل المهجع. وقفنا بالباحة كأننا نسينا السير والشمس، عاد إلينا مدير السجن بصوته الجهوري يأمرنا: تحركي وليه وفرقنا كالراعي الذي يفرق خرافه، وهكذا انتهى تعقيمنا وعدنا إلى المهجع.

شعرنا في الحديقة بغربتنا وقهرنا، تجمعنا فيها مثل قطيع من الخراف، لذلك فقد أسرعنا في الوصول إلى مهجعنا لنخفي خيبتنا ومرارتنا .

توالت الأعياد ونحن هنا قابعات، لن نرى أهلنا، ولم تشتر الأمهات السجينات ملابس العيد لأطفالهن، ولن نأكل كعك العيد لن نعايد أحداً بالقول كل عام والجميع بخير، ولن أشارك كعادتي في زيارة مقبرة الشهداء .

الزيارة

الزيارات مهدئ عظيم للأعصاب، أكثر فاعلية من كل الوصفات الطبية، تداوي جراح السجناء المحظوظين بزيارة أهلهم ، وتشفي غليل المنتظرين..

أمضينا قرابة العام في هذا المهجع دون أن يسمح لأهالينا بزيارتنا، لم يعرف أغلب الأهالي وخاصة في المحافظات بأن بناتهم وصلن إلى دمشق، وكيف لهم أن يعرفوا متاهات فروع الأمن وعناوينهم وأرقامهم، كان الأهالي يراجعون الفروع في مناطقهم ويردونهم بالسب و اللعن والتشهير ببناتهم. كان هذا نوعاً من الضغوط على الأهالي إضافة إلى عبارات التخويف التي تقال لهم لمنعهم من العودة والسؤال؟

زيارة الرفيقتين بلسم ... و.. لانا

كانت الزيارة الأولى ضوءاً أنار مساحات نفوسنا ، لم تخرج تلك الزيارة أجسادنا من ضيق المكان، لكنها ساعدتنا في الخروج بأرواحنا، كانت الزيارة لأهل صبية من حمص هي بلسم التي اعتقلت لمشاركتها في رحلة أقامتها كليتها، كلية الهندسة وكان من ضمن المشاركين طبيب مطلوب بإلحاح للأمن، وقعت الصورة الجماعية للرحلة بعد اعتقال الطبيب في أيدي رجال الأمن،كانت صورتها تتصدر المجموعة .

أخرجها السجان على عجل و تخوفنا كثيراً من أن يكون قرار النقل قد عاد ليخطف واحدةً من بيننا، وتنوعت التوقعات والاحتمالات، كانت كل واحدة تدلي بتوقعاتها.ولكن لا صحة لكل تلك التوقعات، فقد عادت بلسم وبريق عينيها يشع علينا بدت متلعثمة ، كانت تردد كلمتين .. رأيتهم ... قبلتهم رأيتهم... أهلي يسلمون عليكم جميعاً

سألنا بالتفصيل كيف حالهم ؟

كيف .. وأين ... ؟

ماذا كانوا يلبسون ؟

وكيف..... كانت تجيبنا بصوتها المبحوح المفعم بمشاعر الحنان. زادتها الزيارة حناناً على حنانها ، نثرت علينا كل ما كانت تحمله من أهلها الكرام القادمين من الخارج، انقطع حديثنا وتحولت مكونات الزيارة وما تحمله من مؤن، و طعام و لباس إلى معنويات حرمنا منها في هذا الجحيم .

التف الجميع حول بلسم ، كان يغمر جمالها المسالم مرح وفرح وحزن بسيط، تجاوزت بلسم بإرادتها نوع الطعام البائس ، وشكل النوم الذي اعتدناه .

فالحديث عن النوم والطعام لا يقاس أمام هول الحرمانات الأخرى، أمام فظاعة ما يسمى "سجن" .

علينا أن نعترف بأن تغير نمط الحياة المادية ليس أمراً سهلاً ولكن بلسم كانت متصالحة مع كل الظروف التي عشناها، بل كانت شديدة التواضع، لم تثر أي حديث تصف فيه الظروف المادية لعائلتها .

تأملتها وقلت لها مازحة سأعترف عليك إن أفرج عنك قبلي حتى لا نحرم من كرم عائلتك. زاد احترامي لصبرها و لتواضعها الذي اكتشفته عندما زرتها بعد الافراج عنا، مازال سريرها ولعبتها بانتظارها ، وقالت والدتها تركت كل شيء على حطة إيدها !

استلمت السريلنكا مواد الزيارة وقامت بتوزيع الحصص على جميع النزلاء ، مع نصف حصة إضافية للمرضى والمتعبين، أطلقت الزيارة رصاصة الرحمة على الجوع والحرمان .

علبة الكرتون، البقايا الأخيرة من مواد الزيارة كان لها أهميتها، علبة الكرتون ، صنعنا منها (الشدة) ورق اللعب وكان مضحكاً حقاً، قسمت حنان الكرتون إلى ٥٢ قطعة ، وشخطت على القطع بواسطة مسمار أخرجناه من حذاء، ووضعنا على كل قطعة علامة تدل على نوع الورقة، سبعة الكبة أو قص الدينار... دار اللعب بين الفريقين ! وكانت اللعبة تتشكل من فريقين وكل فريق من ثلاث أو أربع بنات، واحدة من الفريق تسحب القطعة المطلوبة واثنتان أيضاً تنشر القطع ليتسنى للاعبة الرئيسية رؤية القطعة المناسبة في الرمية .

لعبة واختراع لم يُر في غابر الأزمان شبيه لها . هذه اللعبة الخرقاء كانت تغيظ السجان إلى حد أنه كان يدخل ويفتش بين

البطانيات كي يصادر هذه القطع الكرتونية ، وكنا نحن نحاول إخفاءها في أماكن يصعب العثور عليها ! .

لم يكن حديثنا قد انتهى عن الزيارة الأولى حين أطلت علينا وجوه جديدة من نفس المعدن كانت الزيارة هذه المرة لأهل لانا، كانت بهجتنا مماثلة وأفراحنا عامرة، هاهم الأهل قادمون والسؤال عنا قادم من الخارج، فائض من المعنويات عمنا جميعاً أخبارنا بدأت تتسرب إلى الغوا لي في الخارج . أمدتنا الزيارة بمعنويات جديدة وأطعمة جديدة وملابس ، والتف الجميع حول لانا ، ليسمع ما دار في الزيارة من أحاديث الشوق ، وأسئلة الفراق وكلنا سمع وشغف .

وقد حدث خلاف بسيط أثناء التوزيع ، حيث عمدت السريلنكا فخصت لانا بنصف حصة إضافية ، مبررة ذلك بأنها كانت هي السبب في هذا الدعم ، وكذلك لتخصها بالمزيد من الدعم الروحاني، وقد أيدت ريما وفيروز فلسفة هذا الدعم ؟

برز خلاف ثم بدأ يطفو على السطح بيني وبين لانا ، لقد غلب على تعاملنا مع بعضنا الشعور بالندية التي كانت أحياناً تثير فيّ النكد، كان لوجودي بضع شهور في الزنزانة بفرع حلب نوع من التوحد مع الذات ومراجعة في الأعماق تمت رغم سطحيتها، حول وضع الحزب والمفاهيم الفكرية والسياسية التي كنا نتبناها. تبدلت لديّ مفاهيم حول العمل الحزبي والتنظيمي، لم أكن أجرؤ على الاقتراب منها منذ سنوات من التزامي السياسي، تلك المراجعة إضافة لبعض الهواجس

الأخرى حررتني من قيد ما يعـرف بـالالتزام الحزبـي، ولم أحـظ فـترة وجودي بالمهجع بفرصة إثارة تلك الموضوعات مع من كانوا رفيقات ، ولكن تجنب سلام وعزيزة عن الخوض بـأي موضـوع يتعلـق بـأمور الحزب وما آل إليه بعد الاعتقال كان سلوكاً أقرب للموضـوعية ، علـى خلاف لانا التي كانت تعمد في كـل جلسـاتها إلى إثـارة أحاديـث لهـا مضمون دفاعي عن الحزب والأنكى من ذلك عن بعـض الشخصـيات القيادية التي تربطها بهم علاقات صداقية ، وهنا كان خلافي معها ، فهـي مازالت في ذاك الأسرْ والقيد الحزبـي ، وأنـا أصـبحت في طـلاق منـه وهذا جعلني على نقيض منها، وأصبح التفـاهم بيننـا معـدوماً وخاصـة بعد أن تم نقل سلام وعزيزة إلى سـجن دومـا ، خـلاف فرضـه الزمـان والمكان بالطبع، ربما لأننا حمّلنا أنفسـنا أكثـر ممـا نحتمـل ، كانـت لانا رفيقة ، معاناتها مزدوجة ، تركت ابنتها الطفلـة خارجـاً لتربـى في بيوت الأقرباء ، وزوجها رفيق سبقها في الاعتقال .

ظهرت أشكال من الشللية بـين الرفيقـات، كانـت التناقضـات في غاية البساطة، تمركزت مجموعـة منهـا في صـدر المهجـع " مسـتندة إلى الحيط الشرقي " تضم ممن عـرفن بقيـادة المهجـع، إلا أن سـلام كانت تلعب دور بيضة القبان في جلسة النقد التي يدعو إليها أصـحاب الاحتجاج ! .

كانت كلماتها تبدو محسوبة وموزونه، تهندسها على طريقتها ، كانت تراقب من بعيد الأحداث التي تحصل في المهجع .

الرفيقات المتجمعات في الركن المقابل أو " الحيط الغربي" وكان يضم المعارضات للفريق الأول ، أكثرهن من بنات حلب، ومخرم، و برماية، ومصياف، وسلمية،ودير ماما. أسمت سميرة هذه المجموعة بالبروليتاريا ، وكانت تعليقاتها مضحكة لنا جميعاً، كانت تقلد بعض البنات اللواتي حاولن تبديل لهجتهن الريفية بالمدنيّة، رغم أنها لم تخف غيظها من إحداهن لتنكرها للضيعة وللهجة الضيعة ، عندما نسيت تلك البنت تربيتها وعيشتها منذ الطفولة إلى الشام ولم تعرف عن الضيعة سوى بعض الأقارب .

كانت عتاب من شلتنا ، الصبية المنفردة والمتفردة المتحدية للقهر العالمي، كانت مشاهدة، متفرجة، كان صمتها بصمة وجودها معنا ، لم نستطع فك أسراره، تعرفت على بعض أسرارها الصغيرة تسرب ودها في شراييني ، وسردت لي قصة زواجها ! و كيف عاشت ساعات من حبها على شاطئ البحر، كان الليل والبحر فرشتها وغطاءها ثم أعلنت زواجها مباشرة بعد ذلك ، كان ذلك في حفل صغير أقامته لها أختها وبعض الأصدقاء. رغم المعاناة التي واجهتها من قبل عائلتها وعائلة زوجها ، لرفضهم وعدم موافقتهم لهذا الزواج ، بل إنهم تبرؤوا منها ولكنها اختارت حبها .

احتفلنا نحن في المهجع معها بالذكرى الثالثة لزواجها، وغنت لها فيروزتنا أغنية .. سنة عن سنة عم يكبر بقلبي عهد الولدنة .. وقد

سمع زوجها احتفالنا ، كان في المهجع المقابل لمهجعنا .عرفنا بمكان وجوده، عندما أخذ يردد معنا الأغنية من وراء جدرانه ...

عتاب إنها عالم واسع، لكنه مفعم بالمعاناة والتعب والعتب !! .

تزو بعت بأفكارها في زاويتها المفضلة متسائلة على

طريقة بابلو ؟

ما الذي يوجد بين الولادة والموت ؟

لقد قهرتني برحيلها الأبدي ،فقد توفيت بعد سنتين من الافراج عنها.

لم تدم أفراحنا عامرة بعد الزيارة التي سكنت الأوجاع ، فقد تسرب إلينا خبر استشهاد رفيقنا مضر، الشاب العصامي الملتزم بكيانه وعقله وقلبه، لا آنساه عندما وجه لي نقده.عزمته مرة على فنجان قهوة في مقاهي حلب الممتازة ، فرفض ذلك وقال لي الحزب أحق بهذا المصروف؟

أقمنا جلسة عزاء في المهجع، عزيّنا أنفسنا والحزن يعتصرنا من قسوة هذا النبأ ، الذي سينقل حتماً إلى سجن دوما، حيث تقبع زوجته وكبر حزننا على طفلته سنا.

صدف لرفيقي الشهيد أن رأى معي رواية " الطريق إلى غر يكو" كان هذا الكتاب يرافقني كثيراً ، كنت أعيد قراءته كلما انتابني شعور بالكآبة لا أعرف تحديده !

وكان يعقب على ذلك ، بأن هذه الرواية علمتني شيئاً ، علمتني أن أحب الحياة ، وأن لا أخاف من الموت ، شيء يشبه توارد الأفكار عن موت زوربا كانت الحركة البهية لهذا الجسد المتين ، تجعلك تحار فيما إذا كانت الحركة ، حركة استسلام للموت ؟ أم حركة في رقصة ؟

بدأ سأمنا يزداد فالفطور حبات معدودة من حبات الزيتون التي كنا نتقاسم ما يؤكل منها ونتقاسم نواتها لصنع السبحات والعقود والأساور، وأحياناً قطعة من الحلاوة التي لا يعرف طعمها الحلاوة، لأنها من أردأ الأنواع، أما وجبة الظهر فكانت فاصولية بيضاء مسوسة نصف مغلية، أو بدلاً عنها الكوسا أو البطاطا المطبوخة بالماء .

وفي المساء شوربة ودائماً شوربة.وفي إحدى المساءات كانت تنكة الشوربة تنتظرنا للعشاء،فصرخ المجموع لقد تقرحنا من الشوربة، واقترح البعض إخراج " كيس الزعتر" آخر مقتنياتنا من زيارة لانا والذي خبأناه على السقيفة، وانقسم المهجع إلى فريقين ! فريق يؤيد العشاء زعتر ، وفريق يرفض ذلك ، بحجة أن يبقى هذا الكيس لليوم الأسود ! فهل هناك سواد أكثر من هذا السواد الذي نعيشه يومياً .

وثمة حجة أخرى تدعو إلى أن نخفف من مصروفاتنا التي كانت تقع على كاهل لانا لأنها كانت هي الوحيدة التي تصلها النقود ، كان

والدها يدعها لها في قسم الأمانـات وكانـت وجهـة نظـر المعارضـات بغاية الابتذال!

كقول إحداهن:صار لنا فترة ونحن معتاشين على حساب لانـا ! نسي هـؤلاء المتفلسفات التهمة التي اعتقلنا بسببها، أشعرني هذا الحديث كأننا شحاذون على أبواب الرفيقات، اللواتي سيصبحنا بطلات بعد الافراج عنّا ؟.

صرخت وشعرت بأنني الرافضة الوحيدة ، رغم انضمام عدد من الصديقات إليّ ، ولكن كان يهمني اتخاذ موقف من الرفيقات اللواتي يعتبرن أنفسهن صاحبات الأضواء !.كانت جزيل مندهشة للصراخ الذي دار بيننا !

ثم قالت: احكوا لنا عن الشيوعية بتاعتكم!

ونشبت ثورة عارمة بين المؤيدين والرافضين، والثورة تنتصر أخيراً، انتصر فريق الزعتر و صار العشاء زعتراً ، انتصرت الأكثرية على الأقلية التي كانت تمثل قيادة المهجع .

جزيل اعتقلت ليس لأنها رفيقة! قامت بعمل دفعت ثمنه سنوات، أعطت هوية أخيها لقريبها المتخفي، لم يكن لديها أي معلومة عن الحزب ولم تكن تسمع حتى على نشرة أخبار .

للمال سلطان أعلى في السجن، أو أي ملكية أخرى كالملابس، فمن كان يملك المال، يتألم أقل من غيره، رغم أن الوجبات كانت

تصلنا من السجن ، ولكننا عندما كنا نسجل على طلب شراء لحاجيات من أهم الضرورات لأيامنا، فلا بد من مشوزة أصحاب الملكية ! أحيانا كانت المشورة شكلية! ولكن أليس ذلك بحد ذاته عنصر قوة.

في غمرة سوء أوضاعنا حدثت زيارة لأم عصام ولكن إدارة المعتقل لم تسمح لأقربائها برؤيتها، سمحوا فقط بإدخال مواد الزيارة، و أم عصام لا تعترف بالشيوعية، ولا بكل ما نؤمن به ، فزيارتها ملكها وحدها ! لم تقلد سلوكنا الذي اعتمدناه في الزيارتين السابقتين اللتين حدثتا للرفيقتين .

كانت تنزوي في ركنها وتتناول ما تريد دون أي تفكير بالمجموع،ولا حتى بالبنات اللواتي يشاركنها بنفس التهمة ، لم نتدخل نحن بطريقة عيشها وبأشيائها، طلبنا فقط أن تعزمنا على القهوة اللبنانية،حيث إن رائحة البن كانت تنتشر كلما حركت صرّتها، وافقت أم عصام ولكن دعوتها كانت مختلفة عن كل الدعوات التي تعرف بين البشر، اجتمعنا عند المساء في جلسة مستطيلة كشكل الغرفة ، وأحضرنا الكار وملأناه بالماء وأضفنا ملعقتين من البن ثم سحبنا خيطين من بطانيات فراشنا لتعليق الكار حول لمبة المهجع، ولكن من أجل الوصول إلى اللمبة كان علينا أن نشكل هرماً من ثلاثة أدوار وصعدت كفا على أكتاف الدور الثالث، تعبنا من كثرة المحاولات الفاشلة لتعليق الكار حول اللمبة و في النهاية استطعنا

تثبيت الكار حول اللمبة وجلسنا نراقب، انتهى الليل كله و الصباح التالي ونحن نتفقد هذا الكار بنفس التشكيل الهرمي عله يفتر لتذوب حبيبات البن الطافية على وجه الماء، طال انتظارنا حتى ملت المدعوات من الانتظار وحكايات الطبخ انتهت. أعدنا التشكيل الهرمي بعد أن أعلنا نهاية الانتظار، وقررت أم عصام أن تبدأ بالضيافة وطلبت مني أن أدوّر الكار على الجميع شفة واحدة فقط وتم ذلك بالفعل إلا أن البعض غافل أم عصام بشفة ونصف و حين انتهيت من الضيافة أرجعت ما تبقى من القهوة إلى أم عصام ولكنها وقبل أن تأخذ الكار قالت خذي شفة زيادة فأنت يسمح لك بشفتين لأنك بنت البلد. فغمست إصبعي ودهنت القهوة على فمي ووجهي ولكن نشوتي ضاع طعمها لأن تفيدة أسرعت بنقدي أمام المجموع معتبرة ذلك موقفاً عصبوياً أنانياً ، بسبب تميزي عن المجموع بشفتين من القهوة ، ولكني تابعت الهرج مع نهلة وعتاب اللتين تابعتا الرسم ببقايا القهوة على وجهي كما أن المجموع لم يلق بالاً إلى كلام تفيدة ، وهكذا تمتعنا بالقهوة بعد أن أعادت لنا ذكرياتنا مع القهوة والدراسة والسهر .

أنخاب قهوة أم عصام حولتها نهيدة إلى عرس فلسطيني، رقصت وطارت وقلدت كيف ترقص أم العريس ووالده و كل طقوس العرس وغنت من التراث :

رشوا الوسايد بالعطر و الحنا

والفرح إلنا والعرسن تتهنا

والدار داري ول البيوت بيوتي

ونحن خطبنا ياعدوي موتي !!

قلدت نهيدة أيضاً طريقة رقص الصبايا بالعرس، و كيف يتمنعن عن الرقص في البداية ، وبعد أن تقف الصبية في الحلقة، تبهر الحاضرين بطريقة رقصها ، وتقول "إسحجن يا بنات"...

هذا هو العرس الذي لا ينتهي ، في ليلة لا تنتهي، هذا هو العرس الفلسطيني!

الاعتقال بالفروع قاس جداً وحرمان بالمطلق فأنت ممنوع من اقتناء أبسط الأشياء لا شيء سوى أن تنتظر وجباتهم وتنتظر أوامرهم؟

وأعتقد أنا بأن هذا الحرمان المطلق وحدّنا دون أي شرخ في علاقاتنا ، التي كانت شللية، ثنائية وثلاثية أحياناً. كان ثمة توافق ضمني بين الشلل فقد اختارت غالبية البنات، الصداقات التي تريحهن دون حسابات سياسية، كان الإحساس هو فيصل العلاقة وليس المراتبية السياسية، رغم ظهورها الهلامي أحياناً و بوجه عام لم تكن العلاقات بيننا مسيّسة. كان حلمنا جميعاً الخروج من هذا السرداب. ولم يمنع ذلك من ظهور صغائر الأمور، وكان هذا مفهوماً ومنطقياً .

والواقع أن الحب والعلاقات الحسنة والسيئة يتحكم بها الكثير من العوامل الذاتية والموضوعية، و مثلما يحدث في الخارج حيث الكثير من العلاقات الحميمة تتكسر وتنتهي لأسباب صغيرة، فالأمر نفسه هنا، إضافة إلى الآثار الناجمة عن أعصابنا المتعبة المتوترة، فالخلافات والحساسيات التي ظهرت لم تكن خارجة عن المألوف في ميدان العلاقات بين البشر .

بلعنا الكثير من الخلافات التي كانت تنشأ بيننا، كنا مثل القنابل الموقوتة ، لا يعني ذلك عدم القدرة على التحمل. لقد واجه أغلبنا شراسة الجلاد، خاصة اللواتي انكشف أمر حملهن، إذ لم يتورع الجلادون عن تعذيبهن للتخلص من جنينهن، كانت الضربات تنهال على بطونهن، وظهورهن، ولم ينل ذلك من صمودهن وعنادهن. كان وجودهن دفاعا عن إنسانية الإنسان. كان دفاعاً وتعزيزاً وإثباتاً لقضية المرأة.

وأنا أسميهن بطلات بامتياز.

جرت عمليات نقل الرفيقات من جديد بشكل متتال ومتسارع، وقبل أن ينقلوا فهدة استدعاها رئيس الفرع، لإعادة بعض مواد التحقيق.

سألها عن قريتها ساخراً معلقاً: سمعت أن قريتك مشهورة بالبخل؟

فأجابته لا ! جود بالموجود ! فالتفت إلى عنصر كان جاهزاً وقال له جود !

فانهال بكبل على رجليها ! لقد جاد عليها بكرمه ! كانت لغة الضرب هي لغة الوداع قبل نقلها إلى دوما.

كانت عزيزة تدندن بأغنيتها :

بيّ راح مع العسكر

حمل سلاح وراح وبكر

بيّ علا بيّ عمر

حارب وانتصر بعنجر

شملها الرحيل مع سلام و تفيدة وأندلس، ولكن لم يسلب منا أغنيتها ، بقينا ندندن بها .

الرحيل بطبيعته مُرّ ، والرحيل من سجن إلى آخر أدهى و أمرّ ، كانت البنات أشبه بالطيور المهاجرة إلى عالم آخر، مسافرات إلى عالم جحيم آخر ، عالم صغائر آخر لم نعرف عنه سوى التوقعات ونتف من الأخبار التي كنّا نحللها، كنا نتوقع أسماء جديدة ستشملها قوائم النقل التي تجهزها الإدارة، كان نقل البنات من المهجع أشبه بالفجيعة كان هناك شعور بالفقدان وانتقال إلى المجهول، كانت الفجيعة تداهمنا عند حلول الليل حين كان يتم ترحيل الشباب، كنا على يقين من مكانهم الجديد"سجن صيد نايا" بعد أن أصرّ بعض الرفاق

على توديع زوجاتهم، كانت لحظات مأساوية لا تطاق ، لحظات وداع مرة! اختلطت الأصوات، أرسلت بنات المهجع أشواقها إلى الحبيب والزوج والصديق والرفيق، ومن الممرات انطلق صوت الشباب ينادون البنات بأسمائهن ويرسلون تحياتهم المتطايرة لتعبر الثقوب والشقوق، فراغ وحزن أثارهما الوداع في القلوب المكسورة.. طريقة خاصة في الوداع ، ودعت بها نصرة زوجها، فبعد حصولها على مقص، أرسلت له جديلة من شعرها. تبرعت نصرة بشعرها لزوجها، نصرة متعودة على التبرع فقد تبرعت بالقرض السكني لصالح الحزب، وكان هذا سبب اعتقالها، وشاع هذا الأمر في التحقيقات، ودفعت ثمنا من العذابات ، من جلد وضرب، وانعكس ذلك على صحتها.

تناقص عددنا، بعد رحيل رفيقاتنا وخروج واحدة من العرفاتيات التي كانت أصغرهن سناً، عمليات إعادة انتشار المعتقلات بدأت ثانية نقلنا سبع عشرة من مهجع ٦ إلى المزدوجات من جديد، وتم نقل بنات من المزدوجة إلى المهجع، لم نعرف أعدادهن وأسماءهن. ونقل عدد من الرفاق إلى المزدوجة المقابلة لنا. سرت بيننا التحليلات والتأويلات حول سبب نقلنا ، مجموعة منا تمتاز بالتفاؤل اعتقدت بأن نقلنا إلى هنا من أجل الإفراج عنّا ، حاولنا أن نتذكر التهم التي ثبتها المحققون على كل واحدة منّا ، وسرعان ما دحض هذا الرأي وتم التراجع عنه بسبب وجود متهمات بوصفهن صديقات للحزب في المهجع .

استشهاد أبو جهاد

كان صوت طقطقة الأقفال حركة غير معهودة للسجانين، جرى إغلاق الأبواب الفاصلة بين أبواب المهاجع المطلة على الممرات، وساد ترقب وسكون، وشاع الصمت، والصمت مخيف إلى درجة الجمود وقد غمر بظله الثقيل أرجاء المزدوجة .

فجأةً انطلقت أصوات من مهاجع الشباب العرفاتيين، تهلل وتكبر وتهتف بشعارات عن الشهيد ألهبت المشاعر والحماس حتى كادت الأبواب الحديدية أن تنحني !

وكادت الجدران أن تنفجر !

إصرار على كسر القيد، لم نعهده من قبل.لم نكن نعرف ما الذي يجري عندهم ؟ حملتني جزيل فتسلقت حتى نافذة التهوية المطلة على ممر السجن.

رأيت المهجع رقم عشرة مهجع الشباب العرفاتيين، الباب الحديدي شبه مخلوع ، ولا أحد من السجانين في الممر على غير العادة.

صرخت أسألهم ماذا حدث ؟

أبو الفتوح مسؤولهم بالمهجع أخبرني بصوت عال عن استشهاد أبو جهاد .

قلت له لننشد لفلسطين !

فالمناضلون ليسوا إلا جسورا للوصول إليها .

أعلن الشباب الحداد والإضراب عن الطعام ، و رفض البعض منهم إنهاء الإضراب وتابع إضرابه قرابة الأسبوع .

في مناوبات الصباح، كان السجان " المتعاطف " يمر على المهاجع يدخل قصعات الفطور وتنك الشاي ، كنا في بعض الأوقات نسأله عن الرفيقات في مهجع ٦ ، ونسأله أحياناً إن كان هناك سجين جديد في غرف التوقيف ، كان يجيب ولكن إجابته مختصرة. أما اليوم فقد بدت نظراته معبرة تمتلئ عطفاً وتقديراً لظروف حياتنا،نظر إلي وكأن شيئاً ما يريد أن يقوله ، شعرت بذلك فوقفت بالقرب من الباب، وأثرت معه بعض الأسئلة لأتأكد من تخميني!

وسألته: كيف الضيعة ؟

وكيف والدتك؟

سأل هامساً: أأنت معيدة ؟

وتابع على عجل: لك سلام من طلاب كلية الهندسة !

سألته : هل تعرف أحداً ؟

قال: أختي ورفيقاتها !

كانت الدهشة بادية بوضوح على معالم وجهه ، إلى درجة أنني قرأت ما يفكر فيه

قلت له ما أبشع مناظرنا !

ألا يبدو عليّ ذلك !

الملابس مهترئة والملامح مريضة !

ثم قلت : اسأل مسؤولك لماذا لا يسمح لنا بزيارات أهلنا؟

حتى نرتدي غير هذه الأسمال.

دخلت المزدوجة أغمضت عيني لأتخيل هذا السلام ! ولألامس راحة أولئك الذين لا يبدو أني قد غبت عنهم بعد كل هذا الغياب .

للزنازين أضواؤها وفوانيسها! وكذلك المهاجع والممرات، لتستر عورة الظلام في ذلك المكان، العنصر الطيب المتعاطف هذا حدثني من وراء الباب عن عائلته الفقيرة ، وأنه جاء إلى دمشق بمساعدة مسؤول من قريته للعمل هنا ليعيل عائلته واخوته، كان سنه صغيراً لم يعرف في البدء طبيعة العمل، سوى أنه كان متطوعا.

تجرأت بعد ذلك، وطلبت منه أن ينقل رسالة إلى الأهل، الذين غيبتني عنهم أرقام الفروع ومتاهاتهم .

كانت رسالتي تحمل حدسي لهم ! هنأت أخي بمولوده الجديد، كان قد تزوج قبل اعتقالي بأيام وهنأت أخي الآخر بنجاحه

بالبكالوريا، وكان حدساً صائباً فمازال الأهل يذكرون وقع رسالتي التي أفرحتهم و أبكتهم بآن معاً .

كتبت العنوان:إلى الأهل الكرام من أكثر المناطق برودة أكتب لكم.

العنصر المتعاطف صار أشبه بفانوس جديد أضاء عتمة النهار والليل هنا ، كنت أتخيل شكلاً لضيعته ، وشكلا لوالدته وشكلا لفقر عائلته.

كان كلانا في السجن ، كل حسب طريقته !

هذه المزدوجة ، كانت عالماً صغيراً ، كنا بداخلها طلقاء أحرار، ولكننا لم نكف عن تخيلنا لصورة العالم الخارجي، صورة لا أبهى منها، كأننا لم نعشها من قبل، أمضت صديقتي كفا سهرة بكاملها وهي تحدثني عن بقرتهم، وعن ليترات الحليب، وعن ولادتها، وكذلك عن تهجينها.

جرى نقل الرفاق الشباب من المزدوجة المقابلة،وجيء بمجموعة من الرفيقات من مهجع ٦، عدت إلى التواصل مع الرفيقات اللواتي غابت أخبارهن، عتاب ونهلة وفيروز.أمضيت وقتا طويلاً في الجلوس فوق سقيفة المزدوجة، أراقب النافذة التي كانت تطل على أكثر من عشرين رفيقة، كنا نكتب بأصابعنا في الهواء ولكثرة الساعات التي أمضيناها في الكتابة من خلال النافذة أتقنا تلك الطريقة بالكتابة

و أدخلنا بعض الاختصارات للأحرف باستخدام الإشارات، كانت متعتي وسلواي هي التواصل مع فيروز، نهلة، وعتاب، بعد أن فرقتنا عمليات إعادة التوزيع.

الإنسان لا يحيا دون عمل ، وبحكم غريزة البقاء دأبنا على ابتداع طرق للتواصل ، مع نظرائنا المجاورين لنا بالزنازين والمهاجع !

لا ممتلكات لدينا في هذه المزدوجة سوى الإبرة التي هُربت لنا خلال زيارة لانا ، إضافة إلى أنبوبة المجاري التي تصل مزدوجتنا بمهجع الشباب العرفاتيين "جيراننا" كانوا قد أرشدونا على كيفية استخدامها هاتفاً بيننا .

في السجن عليك إيجاد أشكال للهروب من عزلتك، وللحفاظ على فطرتك " عليك التواصل مع الآخرين"، البحث واكتشاف الطرق مهمة وضرورة لتمردك على قضبان سجنك حتى و إن اكتشف ذلك من سجانيك ! فهذا يعني معركة بسيطة، حتى وإن قبضوا عليك فليس أمامهم إلا أن يسجنوا سجنك ؟.

استخدمنا المجاري كهاتف مع مهجع الجيران، كان التواصل يتم بعد تجفيفها ، رغم صعوبة تحقيق ذلك، كنا نتجاوز كل المحاذير من أجل التواصل . ثم تعلمنا طريقة جديدة من قبل رفيق موجود بزنزانة خلف الممر، كان يفصلنا عنه جدار، هي طريقة التشخيط بنوى الزيتون على الجدار، طريقة أبجدية مبتكرة يتم فيها تحويل عدد التشخيطات إلى حرف. فمثلاً نقرة أولى تعني حرف أ ، ثم تجمع

الحروف إلى كلمة ومن ثم إلى جملة كانت هـذه الطريقـة بحاجـة إلى عدد من البنات ، واحدة لمعرفة رقم النقرة وأخرى لتجميع الحـروف وفقاً لعدد التشخيط والنقرات، وسرت هـذه الطريقـة كالمـاء الـذي يرطب الحلوق ، إذ دأبت حنان وجوليا،ونهى ،ويمامة ، ولانا، وجزيـل ، بمثابرة وصبر على تجميع الأبجديات، و استنتاج ما كان يلقنـه لهـم رفيقنا ملحم .

لم تكن البهجة تكتمل إلاّ بعد تجميع الحروف والوصـول إلى عالم القراءة . قصيدة بابلو نيرودا الـتي حفظناهـا غيبـاً ، كانـت أولى تجميع للحروف المخططة على الجدار .

ماتيلدا اسم نبتة أو حجر أو نبيذ

اسم ما ولد من الأرض وما تبقى

كلمات قرأناها من قبل لكن وقعها داخل الجـدران المغلقـة، كأنهـا رئة إضافية لدى كـل واحـدة منـا، نسـمة جديـدة هبـت علينـا كـالهواء والهوى، كينونة خاصـة وخيـال، تطـير علـى جناحيـه كـل واحـدة منـا لتعيش ماتيلدا على طريقتها الخاصة. ولتسافر بخيالها حيث تشاء .

سافرتُ و فرحتُ كفرح طير طليق ، عندما تذكرت أغنيتي الـتي كنت أحب سماعها من صديقي :

سيبوني يا ناس بحالي .... بحالي

أروح مطرح ما أروح ..

لم تدم أغنيتي ، ولم أروح مطرح ما .... ! فهذا السجن طوى أغنيتي ، وطوى قلبي ، وبت أنا وقلبي في توهان ! .

توهان ثان لقلبي! عندما تقربت من رفيق " أبو علي"، لم يستمر ذلك طويلاً، كانت تجربة مثل ومضة عين.كان يُقلب صفحات جريدة الحزب، وكنت أرتب أعداد الجريدة لتكون أرشيفاً نودعه في مخبأ في أحد البيوت، راقبته بطرف عيني،كشفت حزن عيونه ! لم أحاول تفسيرها ! شعرت بوخزة في صدري ! حزنه يشابه حزن صديقي الذي هزم في الاجتياح. تجاهلت ذلك، ولكني اكتشفته بعد هزيمته في الاعتقال ، شاهدت ذلك بعد أن اختلست النظر إليه، عندما جاء بالقرب من مزدوجتنا ليسلم علينا، يبدو أن رؤيتي للعيون الحزينة هي قدري!!

تواصلنا مع جيراننا الملاصقين لمهجعنا ، مهجع الشباب العرفاتيين الذين كانوا حقاً فدائيين، بسلك صغير استطاعوا حفر ثقب في الجدار، عملهم هذا استغرق شهورًا، هذا الثقب كان نافذتنا في الليل وفي النهار نغلقه بقطعة من الخبز الممضوغ، ولكن نافذتنا لم تدم طويلا بالقياس إلى الأيام التي استغرقت في إحداثه، إذ تسربت القصة للحراس ، فصادروا ذلك وأغلقوا الثقب " النافذة "

كنت أختلس لحظة من مجالستي لصديقاتي، لأنفرد بنفسي في زاوية من المزدوجة ، أتذكر نهلة، لم يغب عني هاجس خوفي لحالها، تركتها في حالة من الشرود ، نهلة لم تفصح لأحد عن

وجعها.كانت قد قرأت عددين من جريدة الراية، جريدة الحزب، واعترفت بذلك خلال التحقيق، لم يكن زوجها على علم بعلاقتها بالحزب ، لم تكن معاناتها من السجن فقط، بل إنه الخوف الذي تجاوز عذاب اللسعات، خشيتها من انهيار علاقتها الزوجية، من المحتمل أن يتزوج زوجها، وأن تساعده والدته في عقابها ! كانت تقص لي ذلك في سهراتنا التي كنا نقضيها مع شلة السهيرات في المهجع قبل مجيئنا إلى هنا و ذات مرة لفتت انتباهي إلى تكرار دخولها إلى المرحاض، كانت تدخل وتبكي بالسر بعيداً عن عيون الساهرات، لا مكان للخلوة مع النفس هنا، إلا في المرحاض، حيث يجري اكتشاف الذات ! كانت تخرج بعينيين حمرا وين كالجمر، أصررت على معرفة سبب بكائها ، سألتها عن السبب ؟ فانهمرت بالبكاء كطفل ضل طريقه عن أهله في الأسواق .

حاولتُ وتابعتُ تهدئة قلقها الذي استرسلت به والذي طال كانت تنساه قليلاً عندما تغني أغنيتها ! التي كانت تعشقها حتى التعب والقهر

يا طير يا طاير على حدود الدني .. ...

يا طير و.. آخذ معك لون الشجر ...

يا طير... ما عاد في إلا هالنطرة والضجر !

كنت خريجة مدرسة سياسية تقشفت بالاكتفاء بعدة مفاهيم وتقشفت معها ، فكنت كثيرة الجدية، كان شعارنا كل الجهود للوطن، لا وقت للحب ولا وقت لازدواج المهمات ، عن ماذا أحدثك يا صديقتي ؟ عن هذا التقشف والتقنين بالحب وبالمشاعر . !

طلبنا من السجان أن يستعير لنا محارم نسائية من بنات المهجع ٦، رفيقاتنا لبيّن ندائنا بسخاء ، عثرنا على رسالة داخل كيس المحارم كَتب فيها :

نحن بخير لم ينقل منا أحد ، الرفيقة رجاء تعاني من وضع صحي سيء؟

عزمت أنا و لانا على الرد في الحال، تذكرنا الإبرة وورقة سيلوفان علبة الدخان، صارت الإبرة قلمنا، وكتبنا بطريقة التثقيب، ثم وضعت الرسالة في علبة دواء، وأرسلناها إلى بنات المهجع ٦، عن طريق السجان "المتعاطف"، وبعد ساعة تقريباً عاد السجان " المتعاطف"، وطلبني إلى خارج المزدوجة، ليتأكد مما فعلت

كشفت أمرنا أم عصام راقبت حركة البنات، وتحديداً غنوة التي استلمت علبة الدواء، وهددت بأنها ستوصل ذلك للإدارة، كان هذا الحارس شديد الخوف، من أن تعرف الإدارة بذلك، وأنا خير من يعرف؟ ذلك أن عقاب مثل هؤلاء العناصر أشد من عقابنا، لأنهم يعتبرونهم مثل "أبنائهم "، و تذكرت ما تعرض له الحارس وأنا في فرع حلب عندما حاول مساعدتي .

خرجت من المزدوجة وفي الممر التقيت مع غنوة ، كانت فرصة للقائنا عن قرب وليس من وراء الجدران،صافحنا بعضنا بحرارة، ودارت أحاديث وكأننا في زيارة متجاهلين الممر، كان منظرنا يشبه النسوة الذين يكملن أحاديثهن على الباب في نهاية الزيارة، السجان يطلب منّا الاختصار بالحديث ، يريد أن يفهم كيف تم نقل الرسالة، لقد تم انكشاف خطتنا ، أفشلتها عيون أم عصام. وكذبت غنوة الخبر ،كما كذبت عيون أم عصام بقولها :

هذه المرأة مخرفة وكل ما تقوله كذب . كان لقائي مع غنوة في الممر أشبه بحلم رغم صحوتنا الصباحية.

كانت غنوة واقفة كالنمر في جوابها القاطع، بل كان نوعاً من التحدي بقولها نحن سنعمل بكل طرقنا وحيلنا لنتواصل مع بعضنا، وأن شئتم راقبونا قدر ما تستطيعون لإمساكنا ومنعنا من ذلك .

تذكرت عيونها ونبرتها، عندما زرت أهلها قبل الافراج عنها، وكم تمنيت أن يعرف والداها الثقة التي كانت تكتنفها، كانوا شبه منهارين متعبين للوشايات التي اعتمدها الأمن بحقها، كانت تلك معاناة جديدة لاحقتنا من قبل الأهل والمجتمع، بالإضافة إلى معاناتنا هنا .

" معسكر جديد للاعتقال"

قائمة جديدة بأسماء المنتقلين، في هذا الصباح عاد السجان يحمل قائمة الأسماء. فتح باب مزدوجتنا ونظر في وجوهنا، مشهد من أفلام الجستابو إنه يعرف من يريد، كانت القائمة بيده ولكن لضرورة اكتمال متعته أطلق العنان للسانه ونظر إليّ

وقال: تعالي

فانهالت عليه أسئلة رفيقاتي .

إلى أين ؟

أجابهم بتهكم : لوين يعني إفراج !

خرجت وانتهت الأسئلة والأجوبة .

أمام باب المزدوجة اختلست النظر لألوح لرفيقاتي المتعربشات على النافذة فشاهدت فيروز تودعنا بالنظرات والخوف يملأ عينيها .

أوصلني السجان إلى غرفة الأمانات ثم رجع وعاد بسرعة إلى القبو حيث كنت. عاد مصطحباً رفيقة من المهجع ٦ إنها حسنا التي التقيتها قبل شهور في المهجع، معلمة مادة العلوم، وهي من إحدى

قرى مدينة حمص، اعتقلت بسبب اطلاعها على جريدة الحزب. عُرفت في المهجع بهدوئها، وتحفظها تجاه ما يجري، كانت مسالمة، شبه متحفظة، لم تبح عن خلجات صدرها ، كغيرها ، لكنها كانت مع اللواتي ينتظرن الفرج السريع!.

كان رئيس السجن يحمل قائمة، لم نعرف فحواها، ولكنه وقعها من العناصر التي رافقتنا.

سألته: إلى أين نحن ذاهبات ؟

فقال: إلى أين تتوقعين ؟

قلت: إلى دوما

فاستهزأ بجوابي ، وعلق ! شو صرت تعرفوا كل شيء .

سألته حسنا عن حقيبتها ؟

فأجابها: سبقتك مع رفيقاتك .

لم يفدنا بحديثه بأي معلومات ، ولم نعرف سوى توقعاتنا. بأننا في طريقنا إلى سجن دوما، سجن النساء، حيث تقبع هناك سهى والرفيقات اللواتي سبقننا.

هيأونا للنقل وجهزوا سيارة عسكرية لهذا الغرض، بدت كأنها سيارة مغلفة لسماكة الستائر على نوافذها لم نعرف الاتجاه الذي سلكته ولكن المسافة لم تكن طويلة، وسلمتنا الدورية إلى ثلاثة عناصر كانت

بالانتظار، نزلنا قبواً له أكثر من عشرين درجة، ثم دخلنا غرفة جرداء من الأثاث، كان بابها الحديدي الأصفر مدروزاً بالأسماء حفرها السجناء المارون .

كلهم مروا من هنا !

والى جانب كل اسم ، كتبت عبارة تعليق .

كان باب غرفة المارة أشبه بمصنف من الجرائد، العبارات والأسماء بحاجة إلى وقت طويل لقراءتها.أضفت اسمي، واسم حسنا وكتبت عبارة " تعطلت لغة الكلام "

أمضينا ثلاثة أيام في تلك الغرفة، وأخبرنا السجان قائلاً :

البارحة نقلنا أندلس وتفيدة إلى دوما. وقبلهما بيومين نقلت سلام.

ولم يبق بالإمكان نقل أي قادمة جديدة، لم يعد هناك فراغ يتسع لكندرة؟.

صار المكان " سجن دوما" ضيقاً و مزدحماً بكل شيء . توسلت له بكل العبارات راجية إياه نقلنا إلى سجن دوما .

لم نعد نطيق الحياة في الفروع ، كان يرد عليّ باستهزاء واستفزاز: هناك في سجن دوما رفيقاتك يشربون القهوة ويتمشون حول البحرة من الصباح حتى المساء .

قلت في سري قهوة وبحرة وسجن !..

ما الذي يقوله !

تذكرت أيامنا في المهجع بعد أن عدمنا أي حيلة، خلعنا بأسناننا مسماراً من أحذيتنا لنخطط على قطع الكرتون ونصنع شدّة "ورق اللعب". عرفت بعد ذلك ، أن كلامه حقيقة، ولكنه تكلم بطريقة ساخرة، عرفت ذلك بعد الافراج عنا.

عدت وتوسلت ثانية للموافقة على نقلنا ؟

كان يستغرب من توسلي ! وقال لي تترجين نقلك إلى السجن كأنه الافراج؟.

لم يكن يعرف هول المعاناة في الفروع، إنها ليست سجناً بقدر ما هي استباحة للنفس البشرية ، لم يكن يعرف مقدار الإذلال الذي يتعرض له السجين في الفرع ليثبت إنسانيته .

أمضينا ليلتنا الثالثة في تلك الغرفة الجرداء وفي الصباح نُقلنا إلى مهجع يضم ست نساء، تعرفنا على أسمائهن والمناطق التي قدموا منها.

أمضينا ليلة أخرى، لم يعرف النوم فيها طريقه إلي، كنت أنظر إلى الغرفة والجدران وحبل الغسيل .

وعرفت أن هناك موعداً للماء الساخن مرة في الأسبوع .

بدأنا الحديث مع الشاويشة " كلاي "وأختها، كانتا قد اعتقلنا بتهمة التهريب وقتل عناصر من دورية المكافحة، كانت أجسامهن قوية كن قادرات على مصارعة الثيران.

سألتها عن صاحبة الكنزة الخمرية التي تعرفت عليها فوراً فقد كانت كنزة رفيقتي سلام، كانت ترتديها في مهجع ٦.

وقالت الشاويشة كلاي: يا ملعونة (شو ما بضيع الكم شيء) أنت من حزب سلام ؟ رحلت منذ أيام إلي سجن دوما و تركتها هنا .

قلت لها : نحن بحاجتها ولا يوجد معي ولا مع حسنا كنزات .

السيدة أم كنان لبنانية من طرابلس كانت تستمع إلى حديثنا، وبجانبها أم رامي التي تتجاوز الستين من العمر، وأم زياد المرأة الخمسينية، أشارت إلي المرأتان بالجلوس قربهما، ففعلت، كنت مدهوشة لاعتقالهن، رغم أن أوضاعهن الصحية ليست على مايرام ؟

سألتهن عن تهمهن ؟.

فقالت أم كنان :

نحن بتوع الفكة !!

امرأة ضاحكة بشوشة تضفي على الجو الكئيب مرحاً واطمئناناً،

أفتر ثغرها عن بسمة خفيفة، وقالت بإصرار ما في شيء بيستاهل ثم فتحت يدي ودست مائتي ل.وأغلقتها، ثم اعتذرت قائلة :

"هذا ليس من القيمة بشيء وليس باليد حيلة، بكرة الله بفرجها علينا وعليكم" ، لم تلفت انتباه أحد مما حولها،شكرتها على إحساسها النبيل الذي أبدته لنا، وقبلت مبادرتها التي لا تثمن في هذا الضيق، وأخبرت حسنا على الفور بموقف أم كنان تجاهنا .

كانت أم كنان معتقلة كرهينة عن ابنها المطلوب من جماعة التوحيد الإسلامي ، مضى على اعتقالها تسعة شهور هنا، حدثتني عن تفاصيل هذا الفرع وعن مواقع الزنازين، أمضت شهور من اعتقالها بزنزانة مجاورة لزنزانة السجين رياض الترك، وقالت بأنها تكلمت معه ، وأخبرته عن تهمتها .

أما أم زياد ، فقد زارت العراق قبل عشر سنوات والمضحك أن التقرير المخابراتي عنها وصل إلى الفرع بعد عشر سنوات من زيارتها وتهمتها أنها نقلت رسالة إلى أخيها الهارب إلى العراق .

أم رامي لبنانية، يمكن أن يكون اعتقالها مهزلة القرن العشرين في تاريخ الاعتقال السياسي، تزوجت في بداية الستينات من مواطن سوري وقضت شهر عسلها في بغداد، ولم يكتب لزواجها الاستمرار لوفاة زوجها، فرجعت أدراجها إلى وطنها الأم لتتزوج من جديد، وها هي تعتقل، لتقر وتعترف من هم الأشخاص الذين قابلوا زوجها في بغداد.

"زوجها الميت " ؟؟؟ شهر عسلها بات من الماضي، رحل عسلها ورحل الزوج وجاءت هي إلى السجن .

كان ارتفاع الضغط ومرض السكري ، قد عكر صفاء جمالها، كانت امرأة مدنية، تتعامل مع الجميع بشفافية ظاهرة، و في إحدى الليالي كان السجان المناوب يرافق شباب الزنازين إلى المرحاض ثم ينهال بالعصي و التوبيخ على كل تأخير ، وبسبب الصمت المفروض كنا نسمع صرخاته.قاطعته أم رامي من وراء الباب وبلهجة لبنانية أنيقة قالت له:

يا بني ألم تشعر بالمهانة لهذه الوظيفة ؟ ت ش خ ؟

لماذا لا تذهب إلى البحر و مسجلتك معك تتسمع للموسيقى ، بدلا من سماع هذه الأصوات!

لماذا تعيش هذا الرعب ، دائما و تحمل مسدسك؟

زحمة الأحداث هنا لا تتوقف على اختلافها وجديدها، وجوه جديدة مازلنا نتعرف عليها، و نستمع إلى حكاياتها، حسنا و أنا دخلنا في مجهول لا نعرف شيئاً عن مصيرنا ، النقل إلى سجن دوما، أم البقاء هنا مع هذه الجموع، أو العودة إلى حيث أتينا؟

في هذا الفرع تُبلغ القرارات بالجملة ،لا تأجيل لأي عملٍ إلى الغد . تم الإفراج عن البنت اللبنانية السادسة ، لم أقم أي حوار معها، إلى حد أنني لم أحفظ اسمها ! ربما لأنها كانت تعمل لصالح حزب الكتائب ، حيث تم اعتقالها بتهمة تهريب الكواتم لهذا الحزب الملطخ الأيدي بدماء شهداء صبرا وشاتيلا .

أما نحن المتبقيات فقد نقلنا إلى مهجع ١٢ وأضيف إلينا خمس من رفيقاتنا، نقلن حديثا من فرع الفقدان والولادة كنا قد التقينا معاً في مهجع ٦ ، ثم أضيف إلينا أربع نساء بتهمة الانتماء إلى الإخوان المسلمين .

بدايات الأشياء تبدو طريفة وأحيانا جميلة ، حيوية ونشاط ظهرا في البداية من قبل غالبيتنا،أصبح عددنا سبع رفيقات من نفس التهمة، لم نكن أقلية في هذا المهجع الجديد، تكتلنا و أمسكنا بزمام أمور المهجع، ولم نترك مهمة الشاويشة كلاي، على ما كانت عليه ، لم نسمح لها بالتكلم باسمنا أو النيابة عنا،كنا نفوقها بوعينا وبدرجة تحصلينا العلمي، أما بالنسبة لنساء الإخوان فكن مسالمات مغلوبات على أمورهن كانت معاناتهن تفوق معاناتنا، ولذا لم تكن لهن رغبة بأخذ أي دور .

وضعنا خطة لمحو الأمية ولم يستجب لذلك سوى كلاي واظبت أنا وصديقتي أم الأُنس على إنجاز تلك المهمة، كان لدى كلاي هدف ورغبة لبلوغ ذلك .فازت ونجحت في وقت قصير وكانت أولى النتائج مبشّرة فقد كتبت رسالة صغيرة لمن تعتبره الحبيب الذي تعرفت عليه من وراء الجدران، كنت أصحح لها الأخطاء الإملائية قبل إرسالها مع الحمام الزاجل. فرحنا لفرحها وهنأناها من قلوبنا، فقد تجاوزت الأمية وصارت تكتب الرسائل . . وتعرفت أنا على

صديقها من وراء الباب ، وهو شاب معتقل بتهمة عرفات، كان كلما مر أمام المهجع ألقى تحياته قائلاً، مرحبا بلد.

تنكات وقصعات الطعام تظل أمام الباب، تنتظر السجان كي يفتح الباب، وحينما يفتحه يتجمع أغلبنا ليختلس النظرات إلى سجين كان يجاور مهجعنا، وهو سجين عرفاتي يعيش في مهجع بمفرده، ولا يغلق بابه إلا ليلاً، كانت غرفته كأي غرفة عرفتها خارج السجن، لم نعرف سره كان يكتفي بإلقاء السلام كلما تقاطعت نظراتنا .

بادرت وطفة إلى إدخال القصعات المنتظرة وإذا بصرّة ورقية تقذف إلى داخل المهجع ، اصطدمت بالزاوية المقابلة للباب، تلقفتها أنا وأم الأُنس ولحقت بنا نهلة دخلنا المرحاض بعيداً عن العيون التي لا نرغب في إشراكها بأمور تخصنا .

تجمعنا نحن السبعة في زاويتنا الخاصة بنا لمعرفة رأي المجموع وكيفية التعامل مع صاحب تلك الرسالة، وافقت الأغلبية على التواصل وتحفظت حُسن وأسيا .

كنت قد اقترحت بأن يكون التواصل باسم المجموع؟ لم يحظ هذا الاقتراح بموافقة المجموع، فاتفقنا بالنهاية أن يكون التواصل فردياً باسم من ترغب بذلك.

كان المرسل الشاب " كرم" قد مضى على اعتقاله عشر سنوات ، أي أن وجوده هنا كان أقدم من رئيس الفرع ولكن الفرق بينهما كان

كبيرا ،هو يقبع خلف الجدران و تهمته انتمائه إلى جماعة ٢٣ شباط ،وهو مهندس زراعي كان يهتم بحديقة الفرع، كانت تلك سلوته التي يتخلص فيها من سأم الوقت، الوقت هنا لا ثمن له. كان يتلقى زيارات بشكل دوري وشهري كانت تزوره زوجته وابنته التي تركها في بطن أمها .

كان متلهفاً لسماع أخبار عن الخارج، الأخبار التي لا يتاح له سماعها خلال زيارة زوجنه لضيق الوقت،

بادرتُ بالتواصل معه و كتبت له عن أسمائنا ومناطقنا وتهمتنا، وعن الانتفاضة المندلعة في الأرض المحتلة، وعن حادثة استشهاد أبو جهاد الوزير القائد العسكري لحركة فتح،و أخبار عن حملة الاعتقال التي طالت الحزب، ووجود عدد من رفيقاتنا في سجن دوما. صارت الكتابة إليه شغلتي وولعي، وانضمت أم الأنس و نهلة إلى التواصل معه كان الحديث من خلال الثقوب في الفترات التي يخرج لمتابعة اهتمامه بالحديقة. بتنا نراقب خروجه وعودته من أسفل شقوق الباب، التي لم تظهر لنا سوى شحاطته .

في المساء وقبل أن يرخي الليل سدوله أ طلّ علينا الصديق "كرم" والى جانبه عنصر ممن كنا نسميهم، أسماء مميزة (تدل على أفعالهم) الحمام الزاجل، تعرفنا عليه مباشرة وجهاً لوجه العيون والملامح والطول الفارع والصحة الممتلئة. ملامح أخفتها عنا الثقوب الصغيرة، على الرغم من أن تلك الثقوب لم تخف كرمه وأفضاله .

كانت طلته أشبه بزيارة، نصف ساعة من الحديث والتعـارف كأننـا كنا نعرفه منذ الصغر كان يمـت بقرابـة إلى أم الأنـس، ولـه أصـدقاء من ضيعة أسيا، و هو معروف من ضـيعة نهلـة، و قبـل أن تنتهـي تلـك الزيارة سألنا : كل واحدة منا عن الأطعمة التي تشتهيها .

أغلب البنات قلن: "مقلحمين " على كأس متة ، أما طلـبي فكـان بيض مقلـي وكـاس شـاي ولـيس تنـك شـاي ؟ توقعنـا تلـك الأسئلة للمزاح، اعتبرناه كلام خيال وأمنيات .

وفي أقل من ساعة وصلت قصعة مـن البـيض المقلـي مـع إبريـق شاي بحجم عـائلي، وكـروز متـة ومصاصـة، وعلبـتين مـن السـجائر، وقلم وأوراق صغيرة .

هاهي الأمنيات قد تحققت لنا الليلة .

استمر تعامله الكريم معنا، كان كرم فعلا الصديق وقت الضيق.

كلاي الشاويشة، شعرت بسـحب البسـاط مـن تحـت قـدميها، رغـم إشراكها هي وأختها بحصص متساوية من كـل مـا يـرد إلى المهجـع مـن صـديقنا كـرم ومـن آخـرين. كنـت مـا أزال أسـاعدها بتصـحيح رسائلها التي ترسلها، و لكن للنفس البشرية أمزجة غريبة، يكمن فيهـا حب السيطرة. وسرعان ما غيرت من تعاملها معنا، واكتشـفنا محاولتهـا للإساءة إلينا مع المعتقلات من حزب الأخوان وخاصـة في موضـوعات حساسة كأمور الدين وغير ذلـك، ولم تخـف تهديـدها بـإبلاغ العقيـد

عن علاقتنا مع كرم، لم نرض بتهديدها وتصدينا لها لم يكن ينقصنا سجن آخر وابتزاز لا معنى له .

لم نكن نتوقع شراستها ؟ ولم نحسب حساباً لتلك الشراسة التي أبدتها ، تبادلنا الضرب واللكم ، وجرت الأمور على نحو لم يكن بالحسبان. فقد هجمت عليّ عندما كنت أسند رأسي على نهلة و حملتني كالقشة من زنار بنطا لي ورمتني كما يرمى أي حمل ، وقبل تمكني من ألوقوف لكمتني على أمعائي ودارت معركة ضارية ، نزفنا من أيدينا عندما غرزت أسنانها فيها،وازرقت وجوهنا من صفعاتها، وعلت أصواتنا. كنا نريد نجدة، وفتح السجانون الباب ولم يتدخلوا لإنهاء المشكلة ،كان موقفهم كموقف شرطة الحيّ يأتي تالياً. وقفوا متفرجين دون أن يعنيهم المنظر في شيء ، صارعتنا جميعاً حتى نفدت قوتنا، إلا أن وطفة التي كانت تجاريها بالطول تشبثت بخصلة من شعرها، وتمكنت من هزيمتها . مما اجبرها على سحب أسنانها التي غرزتها في يد وطفة، ثم انتهت المعركة .

كانت كلاي قوية الجسم ، شديدة البأس ، تهمتها مُرة ، فهي قاتلة ! لأحد عناصر دورية المكافحة ! وفي تلك المعركة التي اشتبكوا بها ، تفجرت كلية أختها ،ولم تنل العلاج الكافي .

كانت تفتخر أمامنا بعضلاتها ، وكانت تجد من يسمع لها ، من النساء المتهمات تهمة الإخوان ، كانت تقص لهم كيف واجهت التحقيق

، ولم تعترف عن اسمها ، لان لفظه يعتبر عيباً في معتقداتها. كما عيبت على الجلادين عندما كانوا ينهالون عليها بعصاهم.

قالت لهم يا عيب الشوم !

كيف تمدون أيدكم على حُرمة !!.

مثل هذا النوع من البشر لا يروض بالسجن ، كانت ما تزال مدّعية متباهية بقصص الأجداد والأحفاد.

بدأ المحقق باستدعائنا ، استدعيت كلاي وأختها فنقلت إلى المحقق أخبارنا، وأخبار الرسائل التي كنت أكتبها و الأشياء التي أدخلت إلى المهجع . تخلصنا من عدة المتة بإلقائها في المجاري ، كنا متضامنين ومستعدين لخوض المعركة إلى أقصى الحدود وليس بعد السجن إلا السجن ؟ مع أننا نعلم عدم التكافؤ في خوض معركة مع المحقق لم نعترف للمحقق بكلمة .

لكن يقينه شيء وكلامنا شيء آخر احتفظ بي وطلب مني الانتظار في الممر خارج غرفته ثم واجهني مع كلاي وصديقها الذي أنكرت معرفة أي شيء عنه ، واعترفت كلاي على طريقة علي وعلى أعدائي.

صفعني على وجهي وأنا أكذبهما كليهما قلت له هذا الشاب يهذي، ولابد من علاجه نفسيا. وان رغبت سأفسر لك ذلك ، وقلت له إنه يتخيّل ! و يحلم ويعيش حلمه على الواقف ، تحملت المزيد من الصفعات التي كانت تنهال عليّ خلال أجوبتي ويعتبرها العقيد فلسفة،

وشطارة كلامية مني؟ ، مضى أكثر من ساعة على التحقيق ، ولم يكن أمامه سوى أن وضعني على الدولاب ، وحينها شعرت وكأن العالم انقلب على رأسي.لم يكن يحميني ضعف حالتي الصحية، ولكن العناد واللامبالاة دعمت صمودي أمامه، أمر عناصره بنقلي إلى الزنزانة رقم ١٤، تلك الزنزانة التي لضيقها لا تتسع إلا لسجين واحد واقفا، دخلت الزنزانة وأنا بنشوة وانتابت النشوة الحمام الزاجل الذي أسعده مجريات التحقيق ، وردوا لي هذا الجميل فوراً ، نقلوا أخباري إلى الرفيقات في المهجع ١٢ ، فأعلنت الرفيقات الإضراب وأوصلن مطالبهن إلى العقيد، طالبن بعودتي إلى المهجع ونقل كلاي وأختها، وفي الصباح التالي التقى العقيد برفيقاتي اللواتي أكدن بإصرار على موقفهن ، وفي الليل انتهى ذلك وعدت إلى المهجع يرافقني العقيد وعنصر آخر، دخلت المهجع وغبطتنا لا حدود لها و حملتني أم الأنس على أكتافها كأن مظاهرة عمت أرجاء المهجع، استرجعت بذاكرتي المظاهرات والشعارات التي تعلمتها من المخيم ، مظاهرات للتعييّش و مظاهرات للتنديد ، لكل المناسبات ، جاءتني فرصة ومناسبة كي أردد تلك الشعارات ، استرجعت ذاكرتي ونشاطي في الجامعة والمظاهرات التي كنا نقيمها في المخيم ، رددناها بقوة وعيّشنا أنفسنا ، نحن المناسبة الحقيقية هنا!! راقب العقيد احتفالنا، وأعتقد أننا أثرنا حماسه ، فأمر بإخراج كلاي وأختها ولم نعرف سبب ابتسامته التي كانت ظاهرة على وجنتيه . !

الحياة تختلف باختلاف الزمان والمكان حتى ولو كان سجناً، نقلت كلاي وأختها ومعهن النساء الأربعة من تهمة الإخوان المسلمين، إلى مهجع آخر وخسرنا أم كنان ، و أم رامي، وأم زياد، حيث طالهن النقل أيضاً، ونحن تذكرتنا إدارة السجن بنصف ساعة تنفس ، لم يكن ذلك بشكل دوري كان وفقاً لظروف الفرع وخلوه من حفل اعتقال جديد !، كنّا نخرج ليلاً، الرفيقات الخمس نتسمر قرب شجرة الياسمين وتشير الأمهات إلى زهرات الياسمين، نهلة تشير بأصبعها لتلك الفراشات البيضاء وتقول هذه شبه وجه طفلتي ،لم نكن نقوى على قطع زهرة ! نرفع رؤوسنا للسماء لنعد النجوم السابحة في عالمها، ونفتش على نجمة الصبح وقبل العثور عليها يعلن من كان مراقبنا على إنتهاء الوقت ، وعلينا العودة إلى سردابنا ، ونكر وراؤه صامتين!!

أصبح للسهر رونق عذب لم نشهده من قبل تتخلله طلات الوحيّ كرم.

سبع رفيقات توزعنا على مساحة المهجع تمددنا بالطول والعرض تدحرجنا كالكرات، لا تسييف بعد اليوم ، كنا بسطاء مرحين ، عابسين من الصعب تصنيفنا، فالواقع ليس دائماً واضحاً وراء تلك الجدران .

استرسلت أسيا بنومها، قضت أكثر من نصف الوقت في النوم ! هربت للنوم لتتخيل الإفراج، لتتخيّل كيف تهيء طفلتها الصغيرة للذهاب إلى المدرسة ! وكيف ستملأ لنا العنب بسلتنا حين نزور

قريتها بعد الإفراج عنّا ! طال نومها! كان علي أن أناديها لتصحو! "وا سيا هو" الاسم الذي كانت تناديها به صديقتها حسنا التي تجاورها في النوم.

استرسلنا جميعنا بأحلام الإفراج حتى التعب، إحساس أسبغ على الوجوه مظهراً قاتما كئيبا، صمت يوشك أن ينفجر في كل لحظة، لم يظهر ما كان يختفي بالقلوب ، وكثير من الأشياء دفنت في الأعماق ، ثمة تحفظ من الافصاح عما في الداخل عما نحس به و نحلم به ، كنا أبعد عن الواقعية ، ولعل قسوة ردود صديقتي نهلة التي لازمتها أوقات كثيرة كانت معبرة عن ذلك، كانت ردودها قاسية ساخرة لدى أي مراجعة لها، أو أي خلاف معها ؟ .

سبع سوسنات ، سبع رفيقات، كنا بالأحوال العادية هادئات، كانت الأهواء مختبئة مخفية ، كأنها جمر راقد تحت الرماد، الانفجارات بيننا كانت نادرة، أقمت علاقة صداقة معهن جميعاً كانت مريحة إلى حد ما، ومع البعض كانت قوية .

كانت علاقتي مع أم الأنس قوية بمحبتها ، من أول وهلة ، تفاهمنا في الكثير من الأمور، حول تفاصيل الأحداث التي كانت تواجهنا، جهدنا أن تسود حياة الرضى بيننا جميعاً ، عملنا على امتصاص أي خلاف ينشب! وخاصة النزق الذي لم يأخذ مداه بالانفجار بين نهلة و وطفة، كنا نطوقه على طريقة بوس اللحى ! .

التقيت مع أم الأنس في مهجع ٦ كنا صحبة حميمة ! ولكن زحمة عددنا حالت دون أن نتعرف على أسرار بعضنا، كما نحن هنا، كنت أقدرها وأحبها كثيراً .

ضاق ذرع نهلة من الانتظار، وصار طبعها أميل إلى الشراسة، والمناكدة والمناكفة. ضعفت قدرتها عن مواجهة مرارة البعد عن أولادها وزوجها، لم تستطع في بعض الأوقات السيطرة على تلك المرارة فكانت تخرجها غضباً ونزقاً، كانت علاقتي معها متينة منذ التقينا في مهجع (٦).

حسنا معلمة العلوم، كانت طيبة القلب، كانت مبادراتها هنا محدودة ، رغم أنها كانت تضفي على المهجع جواً ضاحكاً في تعليقاتها التي تصدر عنها بشكل عفوي .

حُسن كانت شديدة الذكاء، كثيرة الشك ! مفرطة الحساسية، شديدة الغضب، هي سجينة بلا تهمة، لم تكن لها أي علاقة بالحزب، هي صديقة لحزب آخر لم يطله الاعتقال في كل تاريخه ، ولكنها لم تسلم من الاعتقال كانت معاناتها مضاعفة بالقياس إلينا .

لم يطالني النوم كما طال بعض رفيقاتي، لم أستطع أن أبعد صورة والدي في هذا الهجران تذكرت حديثه، الذي سبق اعتقالي ، ففي ذات مساء دخلت البيت وتوتري سيد المواقف، اكتشفته والدتي ولم يخف عنها، سألني والدي ماذا تحملين في هذه الشنطة الثقيلة ، لم أجب بشيء. أصر والدي على معرفة ذلك فقلت منشورات، تجادلنا كثيراً،

وبدأت تتكشف حقيقة اهتماماتي السرية التي حجبتها عنهم، كان عليه أن يذكرني بدراستي والطموح العلمي وشهادة الدكتوراه التي كنت على أبوابها علني أتراجع ، ذكرني بتعبه الذي قضاه من أجل بناء بيتنا، وبتعب أمي وتقشفها من أجل أن تلبسنا وتطعمنا بما يليق لنا، اعتبر والدي أن ما أقوم به أكبر من إمكانياتي ، وهو سيدمر مستقبلي وربما سيطال مستقبل أخوتي، الذين لم يكونوا يشبهوني بالتفاصيل، كنت أنشط باندفاع جنوني، حاول والدي العمل على فرملته ، فلم يفلح، خيرت بين خيار ين ! أن أخرج من البيت وأعيش بعيدة عنهم إن تابعت تلك الاهتمامات، أو أغير هذا النمط من حياتي ، اخترت الخروج من البيت، ودام ذلك فترة وقد سكنت بيتاً بالأجرة مع بعض الصديقات ، خرجت وكلي إصرار على مواصلة الطريق الذي اخترته.

لم نلتق مع رئيس الفرع منذ قدومنا إلى هنا ، اقترح المجموع ذلك ، فأرسلنا طلبنا إلى العقيد ، ولم يتأخر ذلك، وذهبنا السبعة، و دخلنا مكتبا فخماً ، كانت علائم النعم بادية على رئيس الفرع، باللباس المميز، والساعة الذهبية، والقداحة الذهبية !

آه يا بلد كم أنت غنيّة ، وكم نحن فقراء ؟

وقفنا أمامه فأخذ يتأملنا، كأنه يشاهد مناظر كتب تحتها " بلا تعليق "

ولم ينبس بأي كلمة .

كانت ردة فعل سريعة مني ! عندما شاهدت تلك النعم .

وقلت: (رش دخان ع الصبايا) ؟

واقتربت من طاولته باتجاه علبة سجائره من نوع "مرت" الموجودة على الطاولة لأهم بتضييّف الصبايا منها فزورني بعينيه ،

وقال: ممنوع

ثم سألنا عن هدفنا من اللقاء ؟

كان لكل واحدة طلبها .

ملابس داخلية وبيجامات، فوط نسائية، ساعة تنفس، تحسين الطعام وزيادة كميته، كتب وجرائد وسجائر، السماح لأهالينا بالزيارات

رفض كل طلباتنا وقال بأسلوب ساخر :

عليكم أن تتحملوا فأنتم اخترتم معارضتنا وعملتم مناضلات وبدكم السلطة! تحملوا إذن نتائج عملكم.صمتنا ولم نرد على سخريته، انتهت المقابلة وعدنا إلى مهجعنا خرجنا بانطباع بأن الافراج بعيد المنال طوته سخرية هذا الضابط، كان علينا التكيّف مع هذه الإمكانات التي نحن فيها و مع تلك الظروف التي تحيط بنا. ولكننا عزمنا على عدم السكوت عن مطالبنا وقررنا أن نكرر ذلك.

طالعنا الصباح بطلب اثنتين منا من قبل العقيد، خرجت أنا وأم الأُنس، وعرفنا أن رئيس الفرع وافق على أن نستعير كتباً من مكتبة السجن، هللنا بصوت عال، كادت أن تحرمنا هذا الاستحقاق، خرجنا الإثنتين ، كانت المكتبة أكبر من أي دار نشر معروفة في المدينة، لكثرة ما فيها من الكتب! كتب جديدة لم تمسّها أيدٍ ، وكتب تبدو بأنها قد استخدمت من قبل قرائها، كتب عليها أسماء أصحابها الأصليين ، وقد لفت نظري مجلدين، كتب عليهما اسم صاحبهما الأصلي " فائق " كان من الواضح شدة حرصه واهتمامه بالكتاب. إذ درزت أوراقه بخيط من القنب حتى لا تنفرط.

بدأنا نراجع الكتب كأننا في بيوتنا، ونقرأ العناوين، ثم حددنا الكتب التي سنستعيرها! ، وجهزنا أربعة عشر كتاباً كانت من الثقل بحيث يصعب علينا حملها كأن نهماً أصابنا . اصطحبنا العنصر إلى رئيس الفرع وفقاً لأوامره. كان حَمْلُنا من الكتب أربعة من مجلدات تروتسكي، وكتاب الثورة الروسية، وكتاب لروزا لكسمبورغ وكتاب أدلر إوز ، تصفح رئيس الفرع عناوين الكتب التي نحملها ! وأطلق صفرة من بين أسنانه تعبر عن دهشته لاختيارنا

وردد يا سلام !

شو ناوين تعملـــــــوا حزب هنا !

وقال للسجان أرجع الكتب إلى مكانها، ودارت مفاوضات معقدة على أمل أن يسمح لنا ببعضها و في النهاية سمح لنا برواية "شارل ديكنز وادلر أوز".

و سبقتنا أقدامنا إلى المهجع، فمهما كانت النتيجة، فهي غنائم . شيء أفضل من لا شئ ... كانت تلك أكبر جائزة نحققها في هذا الظلام السرمدي.

قرأنا بشكل جماعي وفردي التهمنا الصفحات والسطور ، عكست القراءة رونقا على وجوهنا وسلوكنا .

وزعنا القراءة بنحو جماعي، حصلنا على كتابين فقط، ونحن عددنا سبعة ، تشاركت أم الأنس مع حُسن وحسنا بشكل جماعي في قراءة قصة " أنت جريح". كانت أم الأنس تقرأ بصوت عالٍ، كانت تطلب منا جميعا الإنصات إذا صادفتها جملة يشبه وضعنا.

و كنت أقرا مع نهلة رواية شارل د يكنز .

أنجزنا قراءة الكتابين بسرعة ، ولكن الخوف تملكنا من عدم موافقة الإدارة على التبديل، ومن ثم فسنعود نكر أوقاتنا بملل وضجر .

إدخال مشروع المطالعة بخّر من أحاديثنا عن الإفراج و من كل التحليلات المتفائلة، انغمسنا في تفاصيل حياتنا الجديدة ، وعزمنا على الإصرار دائماً على متابعة استعارة الكتب من المكتبة " المستودع " ولن نهدئ لهم بالاً إن حرمنا من ذلك .

قبل ذهابي لاستلام الكتب كنت قد نقلت إلى المشفى لمتابعة علاجي ، لم تنقطع زياراتي إلى المشفى، كنت أنسج إلى جانب العلاج علاقات مع الأطباء المشرفين. البعض منهم لم يخف تعاطفه وحاول دعمي مالياً، والبعض تعرف على بعض رفيقاتي وعلى ضيعهن، كانوا يزودوني بسلا مات وأخبار عن عائلاتهن، ولكن بعضاً آخر من الأطباء انتقد الحزب وحملوه مسؤولية حملة الاعتقالات، كنت امتنع عن الخوض معهم في مثل هذه الأحاديث، كنت أقول لهم بأنني الآن في السجن و عند خروجي لكل حادث حديث.

تجددت تقارير المشفى بالمطالبات المشددة بالإفراج عني، ولم يكن لرئيس الفرع صلاحية تنفيذ مثل هذه القرارات، وقد استدعاني ليلاً لأختار بعض الملابس الشتوية من المستودع، فحملت ما استطعت من الثياب لي ولرفيقاتي، و لم تفوت أم الأُنس فرصة للضحك بتقليد عارضات الأزياء ، كان فاصلا منشطاً من الضحك غمر ليل مهجعنا بالبهجة من جراء تلك الشفافية التي تميزت بها، فقد تحايلت على الحزن وجعلته فرحاً بأسلوب هزلي محبب، رغم عجزها أمام حزنها الذي لم تكن تقوى عليه وهي تقرأ رواية "أنت جريح" كانت دامعة العينين ولا تنفك تردد وتسألني هل ستلاحقنا هذه الانكسارات عند خروجنا ، كما وردت في هذا الكتاب ؟

لم يتسن لي الخوض أكثر في الحديث عن الانكسارات التي كانت تنتظرنا؟ فتح الباب سريعاً وخطفت من بين رفيقاتي إلى الممر أيقنت أن ساعة الافراج باتت قريبة مني .

قرار الإفراج الذي طبق سريعا خطفني من المهجع لأذهب إلى ما كنت اعتقده حرية ! لاشيء من ذلك !

ما من شئ قريب إلى قلبي بعد الإفراج عني. فرفيقاتي مازلن في الأقبية يستقبلن قصعات الطعام وتنك الشاي . الاعتقال شيء مؤلم للغاية ولكن النسيان أكثر ألماً .

للحرية باب واحد ... لكن لا تزيدوا عليّ وجعي ، فقد توجعت أكثر من سنتين في ذلك القبو وما زلت أتوجع ، رفيقاتي مازلن يعشن الوجع؟؟

سيستقبل العالم بعد أسبوع عيد سنة جديدة ، فيا رفيقاتي سأكون معكن وإلى جانبكن لا بديل لي عنكن ، سأغلق نافذتي علّني أصل إليكن . لأقول لكم صباحتنا المعهودة :

صباح السوسن والياسمين

صباح نهلاتو

صباح ميوشكا، و أم الأنس وحسام

خرجت من الظلمة ، ولكنني انزويت في غرفتي ، كنت أهذي خلال يقظتي وانظر حولي لا قصعات ولا تنك ولا أبواب و لا

أقفال .... عليّ أن انتظر الغد الأجمل ، العبارة التي قرأتها على جدران غرفة المارين ؟ .

رفيقاتي .. أرجو المعذرة ، ربما لا شمولية في أوراقي هذه ولكني حاولت أن أجسد شيئاً مما عشته وما شاهدته معكن أنا أعلم بأن لكل واحدة منا ، قصتها ومعاناتها ، فلكل زنزانة أو مهجع سجينه الخاص .

خرجت من سجني

لم أكن أنا ! ...

حتوتة أنا العنزة العنيزية ، صاحبة القرون الحديدية

يلي أكل وليداتي ، يلحقنا على البرية !!!

أكلنا .. أكلني الديب

و خرجت من بطنه !

انعصرت في أحشائه

وذبت في عصارة معدته

تهشمت أضلاعي

جمجمتي ، وجهي

أين وجهي !

في داخلي نحيب عال

انكسار

أشيائي الخاصة ما هي !

أين هي !

لم يتغير شيء !

أصوات البائعين ، شجار الأطفال ، نشرة الأخبار.

انزويت في غرفتي ، كنت أتهرب من القادمين لتهنئتي ، وتهنئة أهلي، تلقيت هواتف من الأصدقاء ليؤكدوا محبتهم ، وأن قلوبهم معي.

كم كنت أكرهك يا مدينتي ، حتى أحببتك كل هذا الحب!

ماذا حصل في هذه المدينة ؟ هُزِمتُ ! وهُزِمت مدينتي ! غزتها الدوريات ورجال الموت ، مشطت شوارعها إلى درجة الخواء!

لم يعد لي مواعيد في ساحة سعد الله الجابري، ولا في شارع ميسلون .. ولا في موقف الجامعة.... ولا !

كل الذين أعرفهم باتوا خلف القضبان !

لا شيء في ذاكرتي سواهم

أبحث عنهم، في صمتي، في وجعي، وغربتي ولا بديل لي عنهم!

من يدري !

قلبي مُولع بالحزن !

أم بالياسمين القادم الذي سيكون شرارة لتوقد جديد ...!!

كلـــمة أخيرة

الاعتقال الذي عشته لم أضخم أحداثه، ومناخـات عذاباتـه، فالسـجن ليس فقط المنفردات والزنازين والمهـا جـع الضـيقة والعفنـة، وغـرف التوقيف ،والأبواب الحديدية المقفلة .

يبدأ السجن من لحظة الاستدعاء والملاحقة والطرميشة والمنع من السفر والتجريد من الحقوق المدنية وحجب الوظائف ، وإثبات الوطنية وما يتبع ذلك من المضايقات .

أضف إلى ذلـك بعـض المضـايقات الاجتماعيـة مـن قبـل الأهـالي والمعارف التي لحقت بنا أيضاً .

لم أنس تلك الزيارة التي قمت بها إلى بيت رفـيقتي بعـد الإفـراج ، لم أجدها في بيت أهلها، وجـدتها تعـيش عنـد بيـت أحـد المعـارف، ريثما تحظى بعمـل يعيلـها، لم يستقبلها والـدها، بسـبب سـجنها، ولم تستقبلها عائلة زوجها الذي لم يفرج عنه بعد، لأن والده لم يعترف بهـذا الزواج . عادت معي إلى سكني لنكمل مشوار آخر من العذابات ليس في السجن هذه المرة ، ولكن في فضاءنا الذي صارعنا للخروج إليه .

اتخذ قرار بتصـفية الحـزب ، فطالـت الحملـة الرفـاق والرفيقـات ومشاريع الرفاق والأوساط الاجتماعيـة ، وبعـض الرهـائن مـن الاخـوة

والأخوات والزوجات. وسبق ذلك العديد من حملات الاعتقال لحقت الحزب وأحزاب المعارضة الأخرى .

ليسدل الستار على العمل السياسي ؟

نامت المعارضة كافة نومة أهل الكهف !!

فهل من صحوة !!!

من الصعب اختصار تجربة الرفيقات من الصبايا والأمهات بصفحات، لأن عددهن يفوق تلك الصفحات .

أما مواجهتهن للجلاد فليست إلا صرخة في هذا الزمن الرملي !! .

رسائل وصلت ولم تصل

إلى الرفيقات السبع (سبع سوسنات)

كم الهوة عميقة ؟ بين الواقع الراهن .. و بين الماضي ؟ كم هو كثيف هذا الخراب ؟

زمن ... زمن العواصف .. انشطار الأشياء إلى أنصافها

زمن جارح للقلب ، إشتياقات مرعبة للأوطان البعيدة والشموس الغاربة ، لاشك أنها رحلة طويلة .

ولكن السؤال الأهم ..

أين يكمن العطب ، وكيف نبدأ من جديد ولا نتحطم ؟؟؟

عفـــــاف

في الدهليز كان الوقت مساءً لم تكن وحـدها ، لسعتها السياط والسجاير ، كم من النياشين سقطت أمام كبرياء قدميك؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟

عودة إلى عفـــــاف

صديقتي أنـت مازلـت تنـامين علـى زنـدي ، يتسـع العـالم عنـدما أتحدث عنك ، كلماتي تصغر وتتلاشى .. لأنني سأودعك . بعـد أيـام ستزداد غربتنا .. هوذا عام جديد من الانتظار ، شوارع مـدينتي تعيـدني إليك ، حدائقها ترسم صورتك علـى كـل غصـن ، أنـت عـودتني علـى الاهتمام بأشياء كثيرة .. لذا فأنـا أنتظـر همسـة جديـدة لأسـجلها علـى ياسمينة بيضاء..

وعينك على السفينة . أودعك مع ابتسامتك ؟

ودي فطـــــــوم

كيف كيفك .. أيام خريفية ، وجفاف يعتريني ..

أسألك الكثير .. ماذا عن السهر ماذا عن تأمـل جـدرانك الصـامتة ، تأملك للممرات لتتأكدي من خلوتها .. و غفوة العيون الغريبة الـتي لا ترغبين صحوتها..

أين وصلت بصفحات دفترك الخاص الذي تواعدنا على إنجازه سوية..

حديثي نجمة نجمة .. لسوء الصدف ؟ لقد تباعد تواصلنا و أزعجني خبر خلافاتكن على الرغم من أنني أجهل تفاصيله ولا أعتقد ذلك تطفلاً مني لأنني علمت به .

ما هي مشاريعك في القصة القصيرة ، على فكرة لقد قرأت المجموعة القصصية " لـ " إبراهيم صموئيل " تجربته مماثلة لتجربتنا ، فيها إغناء للجانب الإنساني ، كان كتابه مميزاً في كل ما قرأت من أدب السجون . بإمكان أي واحدة منا إغناء ذلك الموضوع فتجربتنا لا تقل غنى في تفاصيلها .

بمـــــودة

صديق لا ينسى

" نزار"

من مكان صغير بحجم قلبي وهواجسي ...

كان الوقت مساء .. حشد إنساني دافئ ، داهمنا بغتة ، شيء لم أفهمه ، يؤثر ويفرح ويؤلم بأن معاً ..

صديقي .. منذ زمن كانت التماثيل تصنع لانتصار بابل على أشور ، تمثال ثور هائج وامرأة مضطجعة ....

اليوم ، لم يبق من بابل غير الأنقاض ، وهذا الغبار ،

وفوق هذا ! يحط اليمام وينشد نشيد للأصدقاء

القادمين مع الغد ....

مع الود ومع الشكر

أبو هشام ...
رياض
صديق
رفيق
أسماء منا ...

لقد فتشوا حزنه فوجدوا سجنه ؟
لقد فتشوا سجنه فلم يجدوا
إلا أنفاس في
القيود

مجودة

عينك على السقيفة

لا يسلب السجن حرية الإنسان وحسب، بل يحاول أن ينتزع إنسانيته، فكل واحد من المعتقلين أو المعتقلات يرتدي ملابس من الطابع نفسه، ويأكل الطعام نفسه، ويتبع الجدول اليومي نفسه من العمل والروتين، إضافة إلى كبت الحرية، فالسجن نظام استبدادي قهري لا يقبل الاستقلال أو تمييز الشخصية، وعلى المعتقل بحكم أنه مناضل وبحكم كونه إنساناً أن يقاوم طغيان السجن وأن يحول دون أن تسلب منه كل تلك الخصائص.

هذه الكلمات تجعل من هاوية الأشياء سلماً نحو صعود المجد من أوسع أبوابه، لكن هنا، وعند هذه الرواية بالذات جاءت رواية (مي) صورة خالصة لما تتعرض له المرأة المناضلة في سجون السلطة السياسية مسجلةً آلام ومعاناة فئة من البشر جمعهم مكان واحد وإن اختلفت رؤاهم حيال المشهد السياسي في تلك المرحلة وعلاقته مع الآخر (السلطة).

أدب السجون هنا مختلف لما له من خصوصية راكمتها التجربة النسائية، عبرت عنها كثيرات ممن تعرضن لهذه التجربة وإن كان من زوايا مختلفة.

لامست الرواية جانباً كان قد غاب عن سمة هذا الأدب، كون الإنسان (المعتقل) هو السوبرمان الأسطوري القادر على صنع المعجزات من خلال تحديه لظروف الاعتقال السياسي، في حين هذا العمل الأدبي جعل من الإنسان المعتقل إنساناً حقيقياً، يضعف، ويستمد قوته من أسباب تحديه للجوع والقهر ووسواس الانهيار جامعاً حب الحياة، مكتسباً من تجربة الاعتقال حداً من التعامل مع المرحلة السياسية وشرطها التاريخي نقطة انطلاق نحو رؤيا جديدة تكوّن وعيه وتجربته.

هذا العمل الأدبي إضافة جديدة ومتميزة لأدب السجون والمعتقلات، ولعله من الأعمال النادرة التي لامست شخصية المعتقل (المحاصر بأسباب القهر) من خلال إنسانية الإنسان وليس من كونه بطلا أسطوريا.